

أبو الحسن علي الحسيني الندوي

# حاشيت مع العرب

دار الأشتال

للطباعة والنشر والتوزيع  
ص ١٢٧ - بيروت

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

جَدِيدٌ مَعَ الْعَرَبِ

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م

## تقديم

بقلم الأستاذ محمد الحسيني  
رئيس تحرير مجلة « البعث الاسلامي »

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، !  
كانت نهضة أوروبا ، واستيلائها - فكرياً وسياسياً  
واقتصادياً - على العالم المعاصر ، حادثاً كبيراً بالنسبة للعالم  
الإسلامي، الذي لم يعد نفسه لمواجهة هذا الواقع المفاجيء ، وبات  
في سبات عميق ، لم يحسب لهذه الأخطار المحدقة حساباً ، ولم  
يعر لهذه العاصفة الفكرية الشديدة التي بدأت تهب من الغرب  
عناية وانتباها ، حتى اذا هجمت عليه ، وجاست خلال دياره ،  
وتمكنت في عقر داره ، وجد نفسه بين موقفين .

الموقف الأول ، هو موقف المستسلم الخاضع ، والمقلد

الأعمى ، والتلميذ البار . والموقف الثاني ، هو موقف المعادي الخاص ، أو موقف المفتوح المقهور ، الذي لا يريد إلاّ النار ، ولا يعرف لذة غير لذة الانتقام ، ولا يرى في عدوه أي وجه من وجوه الخير ، ولا أي جانب من جوانب الكمال .

وكان لكل موقف أتباع وأنصار عرفوا بميولهم واتجاهاتهم ومناهجهم ، وأساليبهم ، فأصبح الموقف الأول شعار المستسلمين الخاضعين ، المؤمنين بالغرب أشد الإيمان ، والمنغنين بمجده وعظمته في أجمل النغبات والألحان<sup>(١)</sup> . وأصبح الموقف الثاني شعار القادة السياسيين ، والزعماء الوطنيين الحائزين الساخطين ، الثائرين الموقورين<sup>(٢)</sup> .

أما رجال الموقف الأول ، فكانوا أصحاب فكر محدود ، وعقلية قاصرة لا تتعدى خطها المرسوم ، وحدها المعلوم ، ولا تنظر إلى أفق أوسع ، أو غاية أسمى ، ولا ترى إلاّ إلى ما فاق فيه الغرب أقرانه من مظاهر القوة ، أو أسباب الراحة والترف ،

---

(١) ترى أنموذج هذا الأسلوب الأدبي ، والمنهج الفكري في كتابات الرحوم السيد أحمد خان ، زعيم حركة التعليم الحديث في الهند ، وأصحابه وتلاميذه ، وفي كتابات رفاة الطهطاوي بك ، وقاسم أمين وأضراهما في مصر .

(٢) يمثل ذلك مدرسة السيد جمال الدين الأفغاني ، ومقالات العروة الوثقى .

وترى أن الإيمان بصلاحيّة الغرب للحكم والقيادة ، وتوجيه ركب الحضارة حقيقة لا ينبغي أن نكابر فيها ، أو نتجاهلها ، وأن انتصار الغرب على الشرق حكم القدر ، وناموس الكون ، وتدرج التاريخ ، لا فائدة من مواجهته ومقاومته ، أو مقارنته بالحجة والبرهان ، أو بالسيف والسنان ؛ ولا بد لنا من الخضوع أمامه ، وقبوله على علاته — إذا كانت له علات — .

إن رجال هذا الموقف يؤمنون بأن الغرب يفوقنا في كل شيء ، لا في الصناعة والآلة ، والتنظيم والإدارة فحسب ، بل في الثقافة والحضارة كذلك ، أنهم آمنوا بغاياته وأهدافه ، وآدابه وثقافته ، ومذاهبه الفكرية ، والأدبية والسياسية ، والإجتماعية ، كما آمنوا بوسائله ، وأسبابه ، وماكيناته وأدواته وعلومه التطبيقية والصناعية والآلية ، فكانت عاقبة ذلك أنهم لم يرجعوا منه بشيء ، وخسروا كل شيء ، خسروا منابع قوتهم ، وسر حياتهم وغاية وجودهم ، ولذة كفاحهم ، الدين ، وفاتنهم الصناعة ، وما يمتاز فيه الغرب من منابع القوة والسيادة ، فرجعوا بخفّي حنين ، لا دين ولا علم ، ولا وسيلة ولا غاية ، بل تقليد ومحاكاة واستسلام وانقياد ، وخضوع وخضوع ، ورضوا بما يلقي إليهم من فتات المائدة ومزدول الطعام .

إنهم ينظرون إلى الغرب كما ينظر تلميذ إلى أستاذه ومعلمه ، يتلقى منه بصر وأناة ، ويتلقى توجيهاته ، ودروسه يجد

واجتهاد ، ثم يرددها ويستحضرها آناء الليل وأطراف النهار ، وهذا موقف لا محل فيه للنقد والتوجيه ، والروية والتفكير ، ولا يجوز فيه المناقشة والجدال ، مناقشة التّد للتّد ، وجدال الفريق للفريق ، فلا غرابة إذا لم نر من بين هؤلاء من يترفع عن هذا المستوى ، ويلقى الغرب وجهاً لوجه ، ويقابله على صعيد العلم والفكر ، وعلى صعيد المساواة والشرف ، والإعتدال بالنفس ، والإعتزاز بما عنده من دين وأخلاق .

أما رجال الموقف الثاني ، فبدوا عاطفين ، تأثرين نحو هذه المشكلة ، - مشكلة الغزو الفكري للغرب ، واستيلائه السياسي - وتكدست جهودهم في غالب الأحوال على محاربه سياسياً أو عسكرياً ، إنهم لم يحاولوا ، أن يعرفوا عدوهم ، ويطلعوا على دوائله وأسراره ، وسيآته وحسناته ، وجوانب القوة والضعف فيه ، ولم يفرقوا بين ما يفوق فيه علينا من علوم وصناعة وسلاح ؛ فيستفيدوا به ، وما يفتقر فيه من أهداف كريمة ، وعقائد سليمة ، ودوافع نبيلة ، ورسالة نقية صافية ، حتى يفيضوا عليه شيئاً مما آتاهم الله .

وكانوا حانقين عليه ، كارهين له ، بدلاً من أن يكونوا حريصين على انقاذه متوجهين لمصيره ونهايته المتوقعة الأليمة ، ورأوا في الغرب الظافر المنتصر ، محتلاً لأرضهم ، غاصباً لأملآهم ناهباً لأموالهم . أكثر من أن يروا فيه محتلاً لمعتقداتهم ،



غاصباً لإيمانهم ، ناهياً تراثهم الإسلامي ودعوتهم العامة الخالدة ،  
الصافية الطاهرة ، الحنيفة البيضاء التي لا تعرف التزلز والمساومة  
والإستسلام ، ولا تنسجم مع المفاهيم الجاهلية أيماً انسجام .

فكانت النتيجة أن وجد الغرب سبيله إلى الإحتلال الفكري ،  
ورأى نفسه حراً لبث سمومه في الجيل الجديد ؛ والشباب  
الجامعي المثقف ، والبعثات الخارجية ، والوفود العلمية ، ورجال  
الصحافة والأدب ، من غير أن يدركوا خطره ، ويفهموا حقيقة  
معر كته ومكان رميته ، ونوع سلاحه ، فضلاً عن أن يقفوا في  
وجهه وقفة الحرّ الكريم ، والأستاذ الخبير العليم ، ويفكروا  
في مدّ يد العوث والنجدة إليه ، وانقاذه من الهوة العميقة التي  
تورط فيها ، والمستقع الذي يغوص فيه إلى أذنه .

فبينما اندمج الأول في هذا الخضم من الأفكار الغربية ،  
وتياراتها السياسية والإجتماعية ، حاول الثاني أن يعبره من غير  
أن يتعلم السباحة ، ويطلع على العمق والمساحة .

وبجانب هذين الموقفين المتطرفين موقف آخر ، هو موقف  
المتأمل الدارس الذي لا ينكر الغرب برمته ، ولا يقبله على  
علاته ، ولا يخلط بين ما أنتجه من وسائل لإسعاد هذه الحياة ،  
وما اخترعه من مذاهب باطلة ، وثقافات سخيفة ، وآداب مميّدة  
للدين والأخلاق، والمبادئ الإنسانية الكريمة ، والصفات النبيلة .

إن أصحاب هذا الموقف لا يعتبرون ما جاء به الغرب شراً محضاً ، أو خيراً محضاً ، فلا يستسلمون له ، ويندجون معه ، ولا يواجهون ضغطه السياسي ، واستعماره الإقتصادي أو غزوه العسكري فحسب ، بل انهم يجاربون أولاً تلك الروح المادية ، روح الجشع والأنانية وعبادة البطن والمعدة ، التي تسربت في كيانه ؛ وتغلغلت في أحشائه ، وجرت منه مجرى الروح والدم ، فيأخذون ما صفا من هذه العلوم ، ويدعون ما كدر ، يستفيدون من أدواته ومعلوماته وعلومه وصناعاته - التي لا يحتكرها شعب ولا تخصص بها أمة - ويتبرؤون من حضارته وثقافته وآدابه التي تحدد المفاهيم والأهداف ، وتضع القيم والأقدار ، وتكيف المجتمع والحياة !

إنهم لا يحسبون - شأن بعض البسطاء في الشرق الإسلامي - أن هذه الروح المادية المتحررة المنطلقة من كل قيد ، الحارقة لكل قانون ، هي السر وراء هذه النهضة المادية والصناعية ، التي فاق فيها الغرب على أتباعه ، بل يعتقدون أن السر وراء هذه النهضة هو التنظيم والإدارة ، والصناعة والتجارة ، والعلوم التطبيقية التي لاصلة لها بمناهج الحياة وأهدافها ، ولا دخل لها في وضع صورها وأشكالها ، فيشيرون بذلك ، ويعترفون به في شجاعة وثقة ، ويُشيرون على الغرب بالتمسك به والمحافظة عليه ، واقتباس الدين والأخلاق . وتعاليم الأنبياء من الشرق حتى يضم قوة إلى قوة ، ويحقق رسالة المدينة والتقدم .

انهم لا يقفون في وجه الغرب كالعدو اللدود ، أو كالحاقداثا  
وكالناقد الساخر ولا كالتلميذ الخاشع ، والرقيق الخانع ، ولا  
يطأطئون له رؤوسهم كالمصابين بمركب النقص والشعور بالهوان ،  
ويقولون آمناً وصدقنا ، سمعنا وأطعنا ، بل يقولون في صدق  
وجرأة ، وقوة وصرامة ، أصبت هنا ، وأخطأت هناك ، وكان  
الصواب أهون وأيسر ، والخطأ أدهى وأمر ، لأن الصواب هي  
هذه الوسائل والأسباب ؛ والمعلوم والصناعات ، والإدارة  
والتنظيم ، وهي لا تضر الإنسان كثيراً إذا فاتته ، أما خطأك  
فهو منهجك في استخدام هذه القوة وهذا العلم ؛ واهدافك في هذه  
الحياة ، ونظرك إلى الكون والإنسان ، وانحرافك عن جادة  
النبوة والهداية ، وثورتك على الأخلاق ، والقيم الرفيعة .

وهذا الكتاب الجديد « حديث مع الغرب » يصور هذا  
الموقف الجديد في صراحة وقوة ، وفي جمال وعدوثة ، ويقدم  
لرجال الدعوة ، وقادة الفكر أسلوباً جديداً في الحديث مع  
الغرب ، أسلوباً ليس فيه ضعف الفریق الأول ، وخضوعه لكل  
ما يرد من الغرب إلى الشرق ، وتقديسه الزائد لكل ما يُنسب  
إليه من علم وفكر ، وعمل وساوک ، وليس فيه روح الحق  
والسخط ، وحب الثأر ، التي سيطرت على كتابات الزعماء  
السياسيين في الشرق الإسلامي في فجر القرن العشرين ، فكل  
ذلك لا يُفيد الإنسانية المشتركة بين الشرق والغرب ، ولا يحقق

رسالة الدعوة والهداية التي يظطلع بها المسلمون بصفة خاصة .  
وقف المؤلف في هذا الكتاب موقف الداعية الإسلامي ،  
يدعو الغرب إلى الإسلام ، من غير محذرة ، وتأويل وخجل  
واستحياء ، ويحثه على أن يلعب دوره الحظير الهام في قيادة  
الإنسانية ، ويغير مجرى الحياة ، وانه يقول إن هذه الوسائل  
والعلوم تستطيع أن تفيض على الجنس البشري على اختلاف ألوانه  
وطبقاته وأمه وشعوبه سعادة حقيقية ، إذا اقتترنت بالإيمان  
والغايات الصالحة ، ولكنه لا يكتفي بهذا القدر من الدعوة ،  
بل يلفت أنظار أهل الغرب إلى هذه الأناية والكبرياء التي  
سدت عليهم منافذ النور ؛ وحالت دون قبول الحق ، وذلك كله  
في أسلوب حكيم لبق ، ينم عن فقه وحكمة ، وحب وإخلاص ؛  
وتوجع واشفاق .

ووجه حديثاً إلى الشباب المغترب - بوجه خاص - محذراً  
له عن أن تسحره هذه الحضارة الخادعة التي ظاهرها فيه الرحمة ،  
وباطنها فيه العذاب ، وأن يعيشوا في الغرب كالداعي والقائد ،  
لا كالمقلد والتلميذ ، ويفتحوا قناة جديدة بين الغرب والشرق  
على أساس النفع المتبادل ، ويرجعوا إلى أوطانهم وبلادهم ، وهم  
أشد إيماناً بجلود الإسلام واعتزازاً به ، وأكثر إشفاقاً على  
الغرب وعلى الإنسانية التي كادت تهوي في الهاوية .

فجاء الكتاب يجمع بين حسنتين وبين دعوتين ، دعوة للغرب

لتغيير اتجاهه من الجاهلية إلى الإسلام ، ودعوة للشباب المسلم  
المغترب أن يقف دائماً في موقف الداعي والإمام ، انه يقدم  
وجهة نظر جديدة ينظر بها مسلم إلى الغرب ، وتعرض هذا  
الطراز من التفكير الذي تحفظه عن سمومه وشروبه ، وتؤهله  
للقيام بدوره الرائع المنتظر ، والإنصار عليه في نهاية المطاف  
بإذن الله .

وانه يسعدني كثيراً ويشرفني أن أقدم هذا الكتاب  
« حديث مع الغرب » لسماحة الأستاذ أبي الحسن علي الحسيني  
الندوي ، وهو غني عن كل تصدير ومقدمة ، ولكنها فرصة  
كريمة اغتبط بها وأتشرف ، وأنتهزها لتأييد المعاني الكريمة ،  
التي جاءت في هذا الكتاب ، والغاية النبيلة التي ألفت لها ،  
ولله الحمد في الأولى والآخرة ، والبداية والنهاية .

١ شعبان سنة ١٣٨٧ هـ .

دائرة الشيخ علم الله الحسيني  
رائي بريلي ( الهند )

## رسالة الإنسان للشرق والغرب

« محاضرة أقيمت في نادي الاتحاد لجامعة لندن  
في ٢٣ من جمادى الأولى سنة ١٣٨٣ هـ  
١١ من أكتوبر عام ١٩٦٣ م في حفلة حضرتها  
نخبة من طلبة الجامعة والمشتغلين بالبحث  
والدراسة في لندن » .

« ربُّ اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة  
من لساني يفقهوا قولي »

سادتي وسيداتي !

لقد أثر عن الشاعر الانجليزي الكبير روديارد كيلينغ  
( Rudyard Kipling ) أنه قال : « الشرق شرق ، والغرب  
غرب ، ولا يلتقيان » .

إن هذه الكلمة وإن صدرت عن أديب مات في فجر القرن العشرين ولكنها فكرة تغلغلت في أحشاء الشرق والغرب قديماً ، وتناصت جذورها في أدبها وفلسفتها ، وقد تسبق الأفكار والمشاعر ، وتلعب دورها في المجتمع وميواه وعواطفه ، يأتي أديب كبير ، هو لسان حال المجتمع ، فيعبر عنه في أسلوب أدبي قوي ، أو شعر بليغ رنان فيرسلها مثلاً سائراً ويجعلها كلمة باقية في أعقابه ، ويرجعون إليها في جميع الأدوار ويتغنون بها في جميع الأمصار .

لا أعرف فكرة أو كلمة أدبية جنت على مصلحة الإنسانية ووحدها ، ومناهج فكرها مثل ما جنت هذه الفكرة - فكرة توزيع الأسرة الانسانية الواحدة بين الفصيلة الشرقية والفصيلة الغربية - ومثل ما جنت هذه الكلمة التي تتراءى كلمة وادعة بريئة ؛ أو حقيقة علمية تاريخية ، فقد اعتاد الناس في الشرق والغرب ؛ أن ينظروا إلى الشرق والغرب دائماً كعسكرين معادين متنافسين لا يلتقيان أبداً ، كضرتين متخاصمتين لا تجتمعان أبداً ، فإن التقا فعلى صعيد الحرب والقتال ، وإن اجتمعتا فلتذكر كل واحدة منها مثالب الأخرى وتتبع عوراتها وتشفي نفسها .

هكذا ظل الشرق والغرب قروناً طويلة ، أيها السادة !

لا يعرف أحدهما الآخر إلا معرفة ضئيلة سطحية ، تعتمد على مواضع الضعف والنقص ، أكثر مما تعتمد على مواضع القوة والجمال ، ويأمل كل واحد منها الآخر بشك أو حذر ، وباحترار وكرهية .

وكان أول تعارف الغرب بالشرق من قريب في الحروب الصليبية ، وكانت الفكرة التي تسيطر على الزاحفين إلى الشرق في هذه الحروب ، والروح التي كانوا يحملونها والروايات التي سمعوها وصدقوها عن المسلمين وعقائدهم وأخلاقهم والتي دفعتهم بحماسة إلى ساحة القتال لإنقاذ الأرض المقدسة من براثن الوحوش الوثنيين - كما قيل لهم - والجو المظلم الرهيب الذي يسود دائماً على ميدان القتال ، كل ذلك كان لا يسمع بفهم المنافس المناضل وتقدير محاسنه ومواهبه ودراسة عقيدته وخلقه ، والتبادل الحر الكريم ، في المنافع والمصالح ، إلا أن الحروب الصليبية - كما هو مقرر في تاريخ الحضارة - لم تخل من الفائدة ، وقد قصرت بفضلها الفجوة الواسعة بين الأمتين ، وبين القارتين ، إذ لم تستطع بطبيعة الحال أن تملأها .

وكان أول تعارف الشرق بالغرب من قريب ، يوم مد الغرب يده القوية الحديدية - بدافع المصالح الإقتصادية والسياسية - إلى الشرق وبسط نفوذه وسلطانه على أقطاره ، واحداً بعد آخر في القرن التاسع عشر وزحف إليه بحضارته



وصناعته ، وعلومه وثقافته ، وأساليب حكمه ؛ وبخبره وشره ،  
وأصابت الشرق المتخلف في العلوم العصرية ، والصناعة الحربية  
أولاً دهشة الفتح التي منعه فترة طويلة عن فهم الغرب الفهم  
العميق ، والإفادة مما برع فيه وتفوق ، وبما كان يفيد الإنسانية  
في سيرها ، ومنعه كذلك - وأرجو عدم المؤاخذة - ما حملة  
الغرب معه من ثمرات الحضارة المادية وهي في أوج قوتها وزورها ،  
وبما لا تخلو عنه حضارة ضعف فيها سلطان الدين ، ومنعه  
كذلك - وأرجو عدم المؤاخذة مرة ثانية - ما اتسم به الحكام  
الأوروبيون من الشعور الزائد بالسيادة وكرم العنصر ، وما كان  
يصدر منهم أحياناً كثيرة مما لا يتفق مع مبدأ احترام الإنسانية  
وروح الديمقراطية ، التي عُرفوا بها ودافعوا عنها في بلادهم دفاعاً  
جيداً ، والمفتوح الذي كان سيد البلاد بالأمس رقيق الشعور  
مرهف الحس دائماً .

ثم أصيب الشرق الضعيف بالاستسلام والرضوخ للغرب  
الفاتح القوي والخضوع الزائد لقيمه ومفاهيمه ، والتقليد  
لمظاهر مدينته وأساليب حياته ، والتقليد الذي أفقده شخصيته  
وكرامته ، والسير في ركاب الغرب ، والإعتماد عليه في جميع  
مرافق الحياة ، والعيش على هامش الأمم وفي مؤخر القافلة ،  
وقد منع ذلك الغرب من أن ينظر إلى الشرق نظرة احترام  
ومساواة ، فضلاً عن أن ينظر إليه نظرة إكبار وإجلال ، ويتوقع

منه توجيهاً وارشاداً ، أو ينتظر منه إنتاجاً جديداً وابتكاراً ،  
وكاد الشرق يذوب في الغرب وينصهر فيه .

وأخيراً طغت على الأمم الشرقية فكرة القومية التي لجأت  
إليها الأمم الغربية كبديل عن الجامعة المسيحية التي كانت تربطها  
بها الكنيسة الرومانية في القرون الوسطى ، وعن العاطفة الدينية  
التي كانت تثير الحماس فيها وقد منعت هذه الفكرة الأمم  
الشرقية التي كانت تحمل الرسائل السماوية في زمن من الأزمان  
— عن أن تمد يد المساعدة من جديد إلى الغرب ، كما مدت في  
الزمن الماضي ، وكان أمر الأمة الإسلامية في ذلك أعجب ،  
فقد كانت لا تزال أمة الرسالة السماوية ، أمة أخرجت للناس  
للهداية والدعوة إلى الخير ، فقد تشاغلت - بفعل هذه الفكرة  
الضيقة - بنفسها ومصالحها القومية ، وانحصرت في دائرة ضيقة  
من حدود جغرافية أو لغوية أو عنصرية ، وهكذا نصب - أو  
كاد ينصب - المنبع الثري السخي ، الكريم القديم الذي كان  
مصدر الإشعاع العالمي في كل دور من أدوار التاريخ .

وجاء دور الاستشراق والمستشرقين في الغرب ، وكان  
الأمل قوياً في أن يكونوا قنطرة بين الشرق والغرب ، وأنهم  
سيملؤون هذه الفجوة الواسعة الظالمة بين الأُسرتين الشقيقتين ،  
ويرفعون الجفوة التي أنشأها الجهل والبعد بين أعضائها ، وينقلون  
أفضل ما عند الشرق من تعاليم النبوة ومبادئ الأخلاق ، وسير

الأنبياء والشخصيات الدينية ، وما أنتجت من ثروة باهرة ،  
وتشريع مدهش ، وتراث رائع ، وقد قاموا فعلاً بدور عظيم في  
إحياء الكتب الاسلامية المطمورة التي لم تر الشمس والنور من  
قرون ، وفي تصحيحها ومقابلتها بالاصول ثم في نشرها ، وألفوا  
كتباً لا يستهان بقيمتها العلمية ، ولا يستطيع أحد رزق ذرة من  
الإنصاف وحب العلم أن ينكر روحهم العلمية ، وتحملهم للشاق ،  
وتفانيهم في مهمتهم ، ودقة نظرهم ، وأسلوبهم العلمي ، ولكن  
الشرقيين وخصوصاً كثيراً من المسلمين يشعرون بأن كثيراً منهم  
كانوا مدفوعين بالروح الدينية أكثر من الروح العلمية ، وكان  
المحبون للعلم والحقيقة ينتظرون منهم تجرداً عن العواطف  
والرواسب أكثر ، وشغفاً بالحقيقة وارتياًداً للحق ، وجرأة في  
الاعتراف به أعظم ، وعلى كل فقد تقاصر الاستشراق على فضله  
الكبير وما أثره الكثيرة عن أن يملأ هذا الفراغ ، ويقدم إلى  
الغرب - الذي كثرت فيه الباحثون عن الحقيقة والمتبرمون من  
المدنية العادية الجافة في العصر الأخير - صورة صحيحة وضاعة  
مشرفة للأديان الشرقية عموماً ، والدين الإسلامي بصفة خاصة  
الذي يعتبره المسلمون الرسالة السماوية الأخيرة الخالدة ، التي  
بلغت فيها تعاليم النبوة وتوجهات السماء طورها الأخير النهائي ،  
والتي توافق طبيعة هذا العصر ، ولا تسير بالمدنية إلى الوراء كما  
يظهر في بعض الديانات ، بل إلى الأمام ، وتجردها من الافراط

والتفريط ومن الجمود والتطرف ، وتسكبها بقوتها وحيويتها  
العجيبة سبكاً جديداً يلائم حاجات المجتمع الجديد .

ومهما كانت الأسباب والعوامل ، ومهما كانت صالحة للمناقشة  
والبحث العلمي ، فقد ظل الشرق بعيداً عن الغرب مستقلاً بنفسه  
ورسالته ، لا يلتقيان إلا تحت نفع الشبهات والظنون ، والإحـن  
والاحتقاد ، لا يلتقيان لصالح الانسانية المشترك ، ولبناء المدينة  
المثلى ، ولا يتبادلان ما يختصان به من مواهب إلهية وعلوم  
مكتسبة ، واستعدادات فطرية ، وما أنتجها وأبداعها على مر  
الدهور والأعصار ، من علم وفلسفة ، وأدب وحكمة ، إلا نادراً  
وفي دائرة محدودة .

ظل الشرق يعمل في مجاله الطبيعي ، ويدافع في فطرته التي  
اختمرت مع الدين ، وتوقظها النبوة الكريمة حيناً بعد حين ،  
وتغذيها الدعوات الدينية والشخصيات الروحية القوية باتصال  
واستمرار ، وكان موضوعه « الانسان » وكان موضوعه هذا  
الانسان أكثر مما حول الإنسان ، وتحت قدمه وفوق رأسه ،  
عني به الشرق باخلاص وجد ، وجاءه فيه جهاداً كبيراً ووهب  
له جميع مواهبه ، وصب في هذا الموضوع ذكاه وعبقريته ،  
وقوة إرادته ، عني باكتشاف أسرارها التي لا نهاية لها ، وسبر  
غورها الذي لا قرارة له ، وإشعال مواهبه وإثارة قواه التي

لا تعدلها قوة في هذه الأرض ، وتنظيم ميوله واتجاهاته ، وتهذيب أخلاقه التي لا صلاح للبشرية بغير صلاحها .

جاء الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وجاء في آخرهم النبي العربي الأمي ﷺ ، فعُني بهذا الإنسان وتربيته وإثارة كنوزه ودفائنه وفتح فيه عين البصيرة التي يدرك بها خالقه ورب هذا الكون الواسع العجيب ، ويستمد بها النور والحياة ، والعلم ، والحب ، والثقة ، والعزم ، والطمأنينة ، والرصا ، ويعرف بها مصدر الحياة والقوة والتنظيم في هذا الكون ، فيعثر بذلك على المركز الذي يربط به الوحدات المبعثرة في هذا العالم ، فيتواءم له هذا الكون وحدة لا تبعثر فيها ، ولا تناقض ، ولا فوضى فيها ولا تنافس ، ولا توجد فيه مناطق مستقلة متناكرة متحاربة ، إنما هي مملكة منظمة واحدة ، تُديرها إدارة قاهرة ، رحيمة واحدة ، « ألاله الخلق والأمر » ، « رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذة وكيلا » يتخلص بذلك عن جميع أقسام الوثنية والثنوية ، وعن الأوهام والخرافات ، وسلطان الأساطير والروايات ، والتقاليد والعادات ، ويطرف عن الخضوع لغير فاطر الكون ومدبره ، حجراً كان ، أو شجراً ، بجرأ كان أو نهراً ، شمساً كانت أو قمرأ ، ملكاً كان أو بشراً ، أنثى كانت أو ذكراً ، « رب السماوات والأرض فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سمياً » .

وفتح فيه النافذة التي نظر منها إلى نفسه وجنسه ، فوجده خليفه الله في هذا العالم ، نفخ فيه من روحه ، وجعله موضع سره ، ومستودع أمانته ، خلقه في أحسن تقويم ، وخصه بأفضل تكريم ، وخلع عليه لباس النياحة والوصاية ، وألبسه تاج الكرامة والإمامة ، وخلق له ما في الأرض جميعاً ، وخلق له نفسه ، وأسجد له ملائكته فحرّم عليه بذلك السجود والخضوع لأي كائن مخلوق « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم » ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً .

ونظر منها إلى بني نوعه ، نظر منها إلى الأسرة البشرية المنتشرة في مشارق الأرض ومغاربها ، فوجدها أسرة موحدة كنفس واحدة تلتقي على أب واحد ، وأم واحدة ، يعتبرها - في ضوء تعاليم النبوة - عيال الله ، ويعتقد أن أحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله ، ووجدها تحمل روحاً ونفساً وشعوراً ، يالم كل عضو منها كما يالم الآخر ، ووجد أن التمييز بين أعضاء هذه الأسرة على أساس اللون أو الوطن ، أو الشعب ، أو الفقر ، أو النسب ، تراث جاهلي ، وقد سمع هذا النبي الكريم مرة يقول لربه في ظلام الليل خالياً « أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة » وأخرى يقول في ضوء النهار وأدام الجمع الحاشد « يا أيها الناس كلكم من آدم وآدم من تراب لافضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على

عربي ؛ ولا لأبيض على أسود ، ولا لأسود على أبيض إلا  
بالتقوى . « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم  
شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله اتقاكم » .

معنى الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - في عصورهم  
ومناطق دعوتهم ، ومعنى النبي العربي الأمي ﷺ في آخرهم بتربية  
هذا الانسان وتحريك مواهبه واستعداداته التي لم تبلغ الفلسفة  
أو علم النفس أو الاكتشافات الحديثة بعد إلى نهايتها وقرارتها ،  
ثم معني بتنظيمها وتوجيهها إلى صالح نفسه وصالح الإنسانية ،  
وأثار فيه رغبة غريبة ، ونهامة عجيبة لإرضاء الرب والتقرب  
إليه ببذل النفس والنفيس ، والتفاني في حبه وطاعته ، وفي محبة  
خلقه وخدمتهم ، وإزالة المكروه عنهم وما يضرهم في الدنيا  
والآخرة ، وإيثارهم على نفسه ، ومحاسبة النفس الدقيقة ، ودقائق  
الاخلاص والأخلاق ، الدقائق التي لا يبلغ إليها ذكاء الأذكاء ،  
ولا يدرك كنهها علم العلماء ، والتي هي أدق من المعاني الشعرية ،  
والأخيلة البديعة في آدابها ، ولا تُترى بأدق مكبرة ، ولا تُتصور  
بأحدث آلة ، ووصل في غزارة الحب ، وقوة العاطفة ، ورقة  
الشعور ، ودقة الاحساس ، وشفافية الروح ، ومُنبِل الاخلاق  
وكرامة النفس ، والتجرد عن الأثانية ، والزهد في زخارف  
الدنيا على المقدرة ، وسمو الفكر ، وعلو الهمة ، وشدة الشوق  
إلى لقاء الرب ، وفي علم الذات والصفات الدقيق العميق ، مالا

يتصوره إنسان . إلاّ إذا عاش مدة في سيرهم وأخبارهم ، ونزل أعماقهم وأغوارهم ، فكان « الانسان » مأثرة النبوة الكبرى والحقل الذي تعهدوه وبذروا فيه البذور الكريمة فأتى بأكبر حاصل وأفضل زرع .

إن الأنبياء في الشرق ، أيها السادة ! لم يعنوا باكتشاف القوى المودعة في هذا الكون ، وتسخيرها واستخدامها كثيراً ، ولا باختراع الآلات والوسائل عناية كبيرة ، وإنما كان جل عنايتهم تربية الانسان وإيجاد الإرادة الخيرة والدوافع الفاضلة فيه ، وتحديد الغايات الصالحة له ، والثروة الطبيعية أو الصناعية كما تعلمون خاضعة ، دائماً لإرادة الانسان واتجاهه وغاياته ، فلما وجدت في الإنسان الإرادة الخيرة ، والدافع القوي الفاضل ، وعرف الإنسان الغاية الصالحة التي يجب أن يسعى لها استطاع أن يعمل بثروته المحدودة المتواضعة والآلات والمراتق المعدودة الضعيفة - التي وصلت إليها المدنية والعلم في عصره - أعمالاً عظيمة لم تتوصل إليها المدنية إلى هذا العصر ، وخدم بها الإنسانية وبني نوعه خدمة لم يوفق لها كثير ممن ملكوا ثروة ضخمة من الآلات والوسائل ، ذلك لأنه إذا وجدت الإرادة القوية المخلصة الجادة ، اكتشفت المجهول وأبدعت الوسائل ، وتغلبت على الصعوبات ، وشقت طريقها في صخور الجبال وأحشاء البحار ، وإذا فقدت ضاعت الوسائل ، وتعطلت الآلات ، وهبطت



جهود المكتشفين والصناع . إن الجوع اللاذع والظما القاتل وحنان الأم ، ولوعة الحب ، وشدة الشوق لم تكن في عصر من العصور في حاجة إلى علم كبير وآلات كثيرة ، ولقد عرفت في كل مكان ، وفي كل زمان كيف تقضي حاجاتها ، وكيف تصل إلى غايتها .

وقد أوجد الأنبياء بقوة شخصيتهم وتأثير تربيتهم رغبة في الانسان يشعر معها بأنه مدفوع إلى تحقيقها ، كما يشعر الجائع ، والظمآن ، والأم الحنون ، والمحب العاني ، فاكشف الطرق الموصلة إليه والوسائل الضامنة له ، وكانت كافية في عصره الذي الذي يعيش فيه ، وهكذا أيها السادة ! وُجِدَت المَدِينَةُ الفاضلة التي تمع فيها الانسان بأكبر قسط من الراحة والسلام ، والعزة والكرامة ، وكانت مدينة محدودة بسيطة ، لا تعقد فيها ولا غموض ، قابلة للتوسع والتقدم في المستقبل على أساس صالح سليم .

وجاء دور نشاط الغرب وإنتاجه ونهضته ، وقد ضعفت صلته بالدين والأخلاق لسوء تمثيل من تزعمها واحتكرها من العلماء ورجال الدين زمناً طويلاً ، ولضعف هذه الصلة العميقة ولضغط الحاجات الاقتصادية والعوامل السياسية ، ولعنف « التنازع للبقاء » في هذه الرقعة المحدودة الأوربية اتجهت عناية الغرب - بدل الإنسان - إلى بيئة الإنسان ومحيطه ، وبدل النفس

والقلب ، إلى آفاق الطبيعة الغنية بالقوى والأسرار ، وإلى المعادن والمناجم ، وعلوم الكيمياء والفيزياء ، والرياضة والهندسة ، والصناعة ، والميكانيكا ، وقد جرت سنة الله أن يؤتى كل إنسان ما طلبه ، وسعى له ، ويسخره له ويمده فيه ، والقرآن يقول : « كَلَّا مَد لَّهُؤَلَاءُ وَلَهُؤَلَاءُ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا » ويقول : « ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى » فصار الغرب يقطع أشواطاً واسعة في علوم الكون والطبيعة والفنون الرياضية والهندسية ، ويكتشف سحراً بعد سحر ، ويصل إلى فتح بعد فتح ، حتى وصل إلى ما وصل إليه في العصر الحديث مما لم يكن الإنسان مهما أوتي من الذكاء في القرون الماضية يحلم به أو يتخيل ، وبما لا يحتاج إلى الشرح وضرب الأمثال في هذا المكان الذي يعتبر بحق زعيماً من زعماء العلم الحديث والمدنية الغربية ، وعاصمة من عواصمها الرئيسية ، وهذه الجامعة الموقرة التي أشرف بالكلام فيها قد ساهمت مع شقيقاتها في تكوين هذا العالم ، وتوسيعه وتهيئة الأسباب لهذه الفتوح المدهشة في مجال الطبيعة والصناعة ، فلا حاجة إلى الإطالة في هذا الموضوع .

لقد تهيأت هذه الأسباب وهذه الوسائل ، وكانت نعمة من الله لا يستهان بقيمتها وفضلها ، وتضخمت وتكدست ، وكانت لغاية واحدة مائة وسيلة وآلة ، وكل فيها الغناء الكبير ، والقوة

الهائلة ، والسرعة المدهشة، وكانت أقل منها كافلة لسعادة البشرية  
وهنائها ورخائها وإقامة السلام العالمي ونشر الحب والوحدة ،  
والتعارف والتعاون بين فروع هذه الأسرة المنتشرة في العالم ،  
ورفع الحواجز بينها وإزالة السدود دونها ، يستطيع الإنسان  
اليوم أن يمدّ يد المساعدة والبر والمواساة إلى أقصى رجل في  
العالم ، ويسمع دقات قلبه وخلجات نفسه ويرى وجهه ويسمع  
كلامه ، ويمنع الظلم - إذا أراد - وينصر المظلوم ، ويمجده  
الجانح في صحراء أفريقية ، ويغيث الملهوف في أقصى الصين ،  
وقد زال كل مانع كان سببه جهل الإنسان وضعفه ، والذي  
كان يتعلل به القدماء الضعفاء ، وحدثت كل آلة يحقق بها الإنسان  
إرادته ، ويصل بها إلى غايته في أقرب وأقل جهد ، فلا عذر  
لطالب خير ، ومحب إنسانية ، ومؤيد سلام ولا عذر لفرد ولا  
لمجتمع ، ولا لحكومة .

لقد كانت هذه الوسائل كافلة بأن تحول هذه الدنيا المليئة  
بالأكدار والأخطار ، المتخنة بالجراح إلى جنة أرضية ، لا  
نصب فيها ولا لغوب ولا خوف فيها ولا حزن ، ولا حرب فيها  
ولا عداوة ، ولا فرق فيها ولا مرض ، ولكن هل تحقق ذلك ،  
وهل زال الحوف والقلق ، وهل انتهى الفقر والبؤس ، وانقرض  
الظلم والهمجية ، وهل ساد السلام والإخاء ، وهل انتشرت الثقة بين  
أفراد الأسرة الإنسانية ، وهل زال شبح الحروب الحثيف ،

ومات عفريتها الراعن؟ انني لست في حاجة إلى أن أقف وأنتظر جوابكم، فإن هذه المدينة الهائلة قد شهدت حربين طاحنتين مدمرتين عالميتين، وساهمت في نتائجها وويلاتها، ونحن كلنا نعيش في عصر اللذة وهولها، وقد ملأ المفكرون والكتّاب في هذا البلد المكتبة الحديثة بالكتب التي تصور انحراف هذه المدينة وشقاء أهلها بها ويندبون فيها التفسخ الخلقي، وتحلل الروابط، وتفكك الأسر، وانتشار القلق والاضطراب، وتسلط الحرف والذعر، فيما كتب ويكتب كفاية وبلاغ.

لماذا كانت هذه النتيجة أيها السادة؟! والوسائل بريئة، والآلات صماء لا ضمير لها ولا اتجاه، ومبي صالحة مهياة للخدمة والنفع في كل وقت إذا أراد صاحبها ومصرفها؛ إن الجواب ليس سرّاً يكتشف أو لُغزاً يحل، وليس فيه امتحان ذكاء وتفكير، والسبب أن الإنسان لم يتقدم بقدر ما تقدمت العلوم وأن الأخلاق والميول والاتجاهات لم تتقدم بقدر ما تقدمت الآلات والمؤسسات، بل اسمحوا لي أن أقول إن العلوم تقدمت على حساب الإنسان وعلى حساب الأخلاق، وإن الآلات والمؤسسات تقدمت على حساب الميول والاتجاهات، وعلى حساب الروح والقلب، ذلك لأن الغرب - مع الأسف الشديد - حصر نشاطه وذكاه وقوة إرادته في المجال الخارجي، وركز كل جهده وكرسه على العالم الخارجي، وانصرف عن الإنسان

انصرفاً كلياً ، وإذا أقبل عليه—في دائرة علم النفس أو علم الاحياء—  
أقبل بفكر مادي محدود لا يتناول أغواره وخصائصه ، وإيمانه  
وعقيدته ، وأخلاقه ، ولم يتناول المصدر الذي يقوده ويوجهه ،  
ويمنعه من الشر ويدفعه الى الخير ، وذلك هو القلب الذي إذا  
صلح ، صلح الإنسان ، وإذا فسد ، فسد الإنسان .

ومع الأسف إذا أراد الغرب أن يُقبل على هذا القلب وينتفع  
به ويوجه به الإنسانية لم يستطع ، ولا يجد إلى ذلك سبيلاً لأنه  
فقد المفتاح الذي يفتح به هذا القفل ، والقفل لا يفتح بغير  
مفتاحه ، وعجزت صناعته الدقيقة ، ومصانعه الهائلة ، ونوابغ  
العباقره عن أن يصنعوا له المفتاح الجديد ، أو يكسروا له هذا  
القفل العنيد ، لأنه قفل الإنسانية ، لا قفل البنوك والمصانع ،  
ولا قفل الصناديق والخزانات ، لا يفتح إلا بمفتاح الإيمان ،  
ومفتاح الإيمان الذي أتحت به النبوة الإنسانية في الزمن القديم ،  
مفقود أو مطمور في الغرب تحت ركام المدنية أو أنقاض المعابد  
من قديم .

إن شقاء الإنسانية ، أيها السادة ! في انفصال الغرب عن  
الشرق وفي انفصال العلم عن الإيمان ، وفي انفصال المؤسسات  
عن الأخلاق والغايات الصالحة ، هذا الانفصال النكيد الذي  
جرّ على مدينتنا شقاء طويلاً ، والإيمان تقدم وتضخم في الشرق  
قديماً ، والعلم تقدم وتضخم في الغرب حديثاً ، والإيمان لا يزال

ينتظر مرافقة العلم ، والعلم لا يزال ينتظر مراقبة الإيمان  
والانسانية تنتظر التقاءهما وتعاونهما ، في بناء المجتمع الجديد ، وفي  
إنشاء الجيل السعيد ، ولا أمل في السلام والسعادة الحقيقية ،  
إلا بهذا الالتقاء المبارك والتعاون الكريم ، وليست ثروة الشرق ،  
أما السادة الغربيون ، والاخوان الاوربيون ، هي هذا النفط  
- الذهب الأسود - الذي تنقلونه إلى عواصمكم لتتحرك به هذه  
المدينة بطائراتها ، وسياراتها ، إن ثروة الشرق وهديته ذلك  
الايمان الذي نبع وفاض في الشرق ، وأخذتم منه نصيباً في  
بداية تقويمكم الميلادي ، ثم نبع وفاض بقوة هائلة ، لا نظير لها  
في التاريخ في القرن السادس من تقويمكم ، نبع في ركن بعيد  
من جزيرة العرب ثم فاض في العالم وأروى الإنسانية كلها ، ولا  
يزال في متناول يد كل شعب وكل فرد ، إذا صحت العزيمة ،  
ووجدت الجرأة الحلقية ، ولا يزال جديراً قادراً على إزالة جميع  
المشكلات التي تعانها هذه المدينة ، ويستطيع أن يفيض على  
هذه المدينة - بقوته وحيويته العجيبة - حياة جديدة ، ويمنحها  
قسماً جديداً من الحياة ، ونوعاً جديداً من الرسالة ، ويجوّل  
هذه الآلات والمؤسسات وهذه العلوم والصناعات الى غايات  
رشيدة صالحة ببناءه ويستخدمها في صالح الإنسانية وفي بناء المجتمع  
الجديد ، المجتمع الذي يتطلع إليه هذا العصر ، وعليكم يقع  
يا أبناء الجزيرة البريطانية مسئولية اكثر من كل بلد ومن كل

حكومة ، فأنتم من أكبر رواد هذه الحضارة ولا تزال فيكم  
القوة الكامنة والحيوية الكافية لتستأنفوا حياة جديدة ، وتتحوا  
بتاريخكم نحواً جديداً ، واسمعوا الصوت السرمدى يقول :  
« قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من  
اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور  
بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم » .

## إلى الشعب الألماني<sup>(١)</sup>

أيها السادة ! أقوم لأول مرة في بلد كبير في ألمانيا كبرلين،  
أحيي الشعب الألماني العظيم وأتحدث إليه ، وأتحدث عن  
الإسلام ، وتلك فرصة سعيدة أقدرها حق قدرها وأعرف قيمتها  
وفضلها ، لقد اتسم الشعب الألماني في الزمن القديم بالرجولة وحب  
المغامرة ، والجد والكفاح ، لقد كانت نتيجة ذلك أن نهض في  
هذا الشعب رجال وعصاميون كان لهم التأثير الواسع العميق في  
المجتمع الغربي وفي الفكرة الغربية ، أخص بالذكر منهم ثلاثة

---

(١) ألقىت هذه المحاضرة في جامعة برلين للعلوم في ٢٤ من أكتوبر  
١٩٦٤م ، وكان نص الكلمة باللغة العربية قرأ ترجمته الألمانية شاب  
ألماني فاضل كان قد أسلم حديثاً .



كان لكل واحد منهم سلطان قوي على النفوس والعقول ، وكان كل واحد منهم صاحب مدرسة واتجاه جديد في موضوعه ، منهم مارتن لوثر ( Martin Luther ) الذي قام بإصلاح الكنيسة والدعوة إلى العودة إلى الكتاب المقدس وتحكيمه والحد من سلطان الباباوات والقسس ، وأثر تأثيراً كبيراً في العالم المسيحي حتى كان مؤسس ديانة جديدة تسمى « بروتستانتية » ( Protestant ) ، وكان منهم « كانت » ( Kant ) الذي حدث من سلطان العقل الذي غالت فيه أوروبا وذهبت في تقديسه وعبادته كل مذهب ، وحدّ حدوده ومجالاته واعتُبر أنبغ عقل أنتجته ألمانيا في العهد الأخير ، وكان له ولكتايه العظيمين : نقد العقل الخالص ( Critique of Pure Reason ) ونقد العقل العملي ( Critique of Practical Reason ) تأثيراً كبيراً في أوساط الفلسفة والتفكير في أوروبا ، وقد اتسمت هذه الحركات بالشجاعة والثورة والإبتكار ، وكان لكل منهم تأثير وابتكار عرف فضله في بلاده وفي المجتمع الأوروبي .

لقد عُرف الشعب الألماني بالثورة والقلق وأُولع بها، بلغت هذه الثورة النفسية والقلق النفسي أوجه في شخصية كارل ماركس الألماني ، وفلسفته التي أثار القلق والتدمر في مساحة واسعة من العالم ، وأحدثت أكبر ثورة على الأوضاع الاقتصادية القديمة في هذا العصر ، وما كانت هذه الحركات التي نوّتها بها

وبرجالها إلا ثورات ومغامرات اتسع مجالها حيناً وضاق حيناً ، وقوي تأثيرها حيناً وضعف حيناً ، وعُرف هذه الشعب بالطموح وحب المجد والاعتماد على النفس ، وما كانت الحرب الاولى ( ١٩١٤ - ١٩١٨ م ) والحرب الثانية ( ١٩٣٩ - ١٩٤٥ م ) إلا ثورتين ومغامرتين في عالم السياسة والحكم ، وما كان إلا أن جاشت نفس هذا الشعب العظيم وثارته مواهبه وطاقاته ، وتملكه الطموح والاعتماد على النفس ، ولا تزال شرارة الحياة كامنة في نفس هذا الشعب ، ولا يزال دافقاً بالحياة والنشاط وبقابلية البناء والإنتاج ، فلولا ذلك لما استطاع هذا الشعب أن يحتمل هذه الصدمة التي قَلَمَا عرف في التاريخ مثلها ، وأن يعيش على هذه النكبة التي كانت كفيّة بجمود أمة ويأسها وتشاؤمها في الحياة ، وما كانت لتخرج هذه المدينة والصناعة وهذا النشاط والإنتاج من تحت ركام المدن المدمرة في الحرب الثانية ، ومن تحت أنقاض برلين ، ويقود - الألمان - شعباً فتياً يواصل نشاطه وكفاحه من جديد .

لقد اقتصرت تجارب هذا الشعب العظيم على ثورات محدودة كالثورات التي أشرنا إليها في مفتح هذا الحديث ، والتي نعرف فضلها وقيمتها في المجتمع الأوربي وفي الفكرة الغربية ، قد آتت ثمارها وأسبغت على الشعب الألماني العظمة والمجد والصيت البعيد ، ولكنها لم تستطع أن تقلب النظام الديني أو الفكري

في أوربارأساً على عقب ، ولم تستطع أن تخلق مجتمعاً وليداً  
وعالمًا جديدًا يختلف عن العالم القديم في كل شيء ، ولم تكن  
الحرابن الماضيتان ثورة في المبادئ والأهداف ، ولم تكونا  
انتصاراً للمسيحية أو للفضيلة أو للإنسانية ، ولم تكونا لتحوّلا  
القيادة من اليد الظالمة الأثيمة إلى اليد العادلة الرحيمة ، لم  
تكونا للقضاء على الفجور والحلاعة الحيوانية ، إنما كانتا  
—وأرجو عدم المؤاخذة — منافسة في الحكم والسلطان ، وبلفظ  
صريح وبتعبير مكشوف لم تكونا الا من فريق خاص في  
الحرب ليجري كلها يجري في العالم من فساد وظلم وانتهاب  
تحت ولايته وإشرافه .

لقد كان الشعب الألماني العظيم جديراً كل الجدارة بإحداث  
ثورة أعمق من هذه الثورات جميعاً وأوسع من هذه الثورات  
جميعاً ، وأعوذُ على الانسانية (فضلاً عن ألمانيا وفضلاً عن أوربا)  
بالسعادة والهناء ، ثورة أكثر أصالة وأعظم جدّة وأشدّ مغامرة  
وأوضع ابتكاراً من جميع الثورات التي قام بها رجالات ألمانيا  
وقادتها في العصر القديم والجديد ، لقد ظلت ألمانيا تسير  
الركب الأوربي وقد تقوده في الصناعة والإنتاج وتضيف الى  
ثروته الوسائل والمنتجات والمخترعات ومرافق الحياة التي تكفلت  
بها أوربا بعد عصر النهضة ، وليس دورها ولاسهمها في هذه المدنية  
الا الصناعة والإنتاج والتجارة والإستغلال ، وقد تجلّى في ذلك

ذكاه هذا الشعب وعبقريته وإبداعه ومثابرته أكثر من الشعوب  
الشيقة والأقطار المجاورة ، واستطاع أن يشق طريقه إلى  
الأمام ، ويحتل الصدارة والزعامة من بين الشعوب والأمم وفي  
أكثر أسواق العالم .

ولكن كان المنتظر من الشعب النائر المغامر قديماً ومن هذه  
البلاد التي هي مهد الثورات ، ومولد النائرين أن تثور على أسس  
الحضارة التي حوّلت الانسان مارداً غويّاً وهدّاماً قوياً ، وآلة  
صماء لا روح لها ولا قلب ، ولا عقيدة لها ولا ضمير ، حوّلت  
العالم إلى بيت المقامرين ، أو حانوت الجزّارين ، حوّلت الحياة  
كلها مساومة ومبادلة وبيعاً وشراء وسلبت الحياة لذتها وجدّتها  
وتنوعها وعمقها ومرارتها وشرارتها ، حوّلت الحياة إلى رحلة  
لا غاية لها ، وإلى متاعب لا نهاية لها ، وإلى سباق لا آخر له ،  
وإلى كفاح لا نتيجة له ، حوّلت الحياة إلى حمار الطاحون الذي  
يدور في دائرة واحدة ، سلبت الانسان أعز متاعه ، وأكبر  
شرفه ، وهو الإيمان واليقين ، والحب الخالص البريء ، واللوعة ،  
لقد كان المتوقع من هذا الشعب - أكثر من الشعوب الأخرى  
في أوروبا - أن يتمرد ويثور على هذه المثل الزائفة ، على القيم  
والمقادير التي ينحتها الانسان ثم يعبدها ويعكف عليها ، وهي  
أساليب الحياة وتكاليفها ومستوى المعيشة والموضات وما يفرضه  
المجتمع على أعضائه والضرائب التي يعيئها ويفرضها ، والتي

تكدر صفو الحياة وتستعبد الانسان الذي ولد حراً كريماً ، لقد كان المنتظر من الشعب الألماني بصفة خاصة الشعب الذي نجسته أوروبا نصيبه ، وجحدت فضله ، أن يتزعم هذه الثورة المباركة الأصلية التي مُحدث إنقلاباً في وضعه ومركزه وفي أوضاع العالم .

ولكن بالعكس من ذلك ظل شعب ألمانيا عضواً وفاقاً في الأسرة الأوربية التي لم تبره ، يتجه اتجاهها ويفكر تفكيرها ويعدها بذكائه وبنبوغه ، لا يتخطى الحدود التي رسمتها ولا يخرج من الدائرة التي عينتها ، ولا يقفز القفزة التي تغير مصيره ومصير العالم ، وتكتب له الزعامة والخلود وترفع مكانته من بين الأمم ، وترغم جاراته وصديقاته على احترامه وتقديره وإكباره ؛ هي القفزة الجريئة التي لم يقفزها شعب من شعوب أوروبا ، قفزة تخرجه من هذا الإطار الصناعي الضيق الذي تعيش فيه أوروبا من قرون ، قفزة تتخطى القديم والجديد وتتناسى الشرق والغرب ، قفزة تنقذ العالم من براثن المادية والوحشية ومن النهاية التي قام بها رجال الثورة والانقلاب في أنحاء أوروبا في مجال الاقتصاد والاجتماع والسياسة .

لقد كان من المتناقضات التي يعسر فهمها أن أوروبا الدافقة بالحياة والنشاط ، التي قدرت لها الزعامة في أوسع رقعة من العالم المتمدن ، والتي تكتشف أسرار الطبيعة

وتسخر القوى الكونية ، والتي لا تعرف الخمود والجمود والتعطل  
والكسل ، تقودها كنيسة تدين بالرهبانية والكهنوت ، ووساطتها  
بين الانسان وخالقه ، وتؤمن بمبدأ الكفارة والغداء الذي يوحى  
إلى الانسان بالإعتماد على غيره ويفقده الثقة بنفسه وبمواهبه  
وبإرادته ، ويضعف في عينه قيمة عمله وضرورة كفاحه ، ثم تظل  
هذه الكنيسة زمناً طويلاً تحول بين الانسان الأوربي الطموح  
الفاحص المتحسس ، وبين العلم والعقل ، وتحرم عليه تخطي  
حدود المعلومات والأفكار التي دّونها مفسرو الكتاب المقدس ،  
ورجال الكنيسة الأقدمون ، وتعاقب من اعتمد عقله وتجربته  
وجهر بمشاهدته واقتناعه عقوبات لم يعرف في تاريخ الأديان  
أقسى منها ولا أظلم ، حتى ثور أوربا على غلواء هذه الكنيسة  
وغطستها وضيق عقلها ، وتفكك كثير من أغلالها فتنهض النهضة الجبارة  
التي لا مثيل لها في التاريخ الحديث ، وتقطع أوسع أشواط في  
العلم والمدنية وعلوم الطبيعة . إلا أن هذا الصراع الذي أجهد  
قواها واستنفذ كثيراً من جهودها وطاقاتها وكانت في غنى عنه  
أفقدتها ذلك الإتران وذلك الاعتدال الذي كان كفيلاً بالسعادة  
وفرض عليها ذلك التطرف والمادية التي أصبحت مع الزمن طبيعة  
الحضارة الغربية ومزاجها الذي لا يفارقها ، ولا تزال هذه  
الكنيسة مهيمنة على المجتمع الأوربي في كثير من الأقطار  
الغربية ، ولا يزال الأوربي في كثير من الأقطار يتجه في الدين

اتجاهاً لا صلة له بالتفكير ، وفي المدينة اتجاهاً لا صلة له بالدين ،  
ويلزمه هذا التناقض أينما سار ومهما تطور .

ومن المتناقضات والمآمي التي لا ينساها التاريخ أن أوروبا  
تظل بعيدة عن الدين الذي هو دين التوحيد النقي والعقيدة  
الوضحة والذي يتسم بالوضوح والعملية ، والحث على الكفاح ،  
والاعتماد على النفس ، ويشيد بقيمة العمل الفردي وجزاء الأعمال  
وتناجها في الدنيا والآخرة وبقيمة هذه الحياة كجسر إلى الآخرة  
ومزرعتها ، ويربي في النفس الرجولة والفتوة والشهامة وعلو  
الهمة ، وتظل بعيدة عن صاحب رسالته الذي يصفه القرآن بقوله  
المعجز البليغ: « الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم  
في التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل  
لها الطيبات ويحرم عليهم الجبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال  
التي كانت عليهم<sup>(١)</sup> » وقد لعبت الحروب الصليبية ولعب رجال  
الكنيسة ودعاة النصرانية والمؤلفون في أوروبا الذين كانت تسيطر  
عليهم العاطفة الدينية أكثر من النزعة العلمية ، في إبعاد أوروبا  
عن الدين الإسلامي وعن صاحب رسالته ﷺ دوراً خطيراً  
فصوّروا لهذا الدين وصوّروا هذا الرسول العظيم أبشع صورة  
وأفظعها ، وشاعت عن الرسول في أوروبا خرافات وأساطير ،

---

(١) القرآن الكريم ، سورة الأعراف .

وأحاطت به هالة سوداء من قصص وأمثال وأقوال حالت دون فهمه فضلاً عن حبه وتقديره ، ولا تزال نماذجه في الكتب التي ألّفت في القرون الوسطى أو بعدها بعهد طويل ، لا يزال يردّها ويعرضها عرضاً جديداً كثير من المتحمسين .

وقد كان هنالك عامل آخر وهو أن أوروبا اعتادت أن تنظر إلى هذا الدين من خلال العثمانيين ، وإذا فكرت فيه أو تمثلته ، تمثلت الأتراك العثمانيين ، الذين كانوا الممثل الرسمي الوحيد للإسلام في قارة أوروبا ، فكانت لا تنظر الى الإسلام نظراً مجرداً بل كانت تتصوره كدين للعثمانيين الذين يغزونها بين حين وآخر ، ويستولون على كثير من بلادها ، وتصدر عنهم أخطاء أحياناً وقسوة أحياناً ، فكان ذلك كله عائقاً عن فهم الإسلام ، الفهم النقي الصافي المؤسس على دراسة وتفكير حر .

وكان لبعده أوروبا عن الإسلام نتيجة تأثير بعيد المدى ، كبير الأهمية في تاريخ المجتمع البشري ، وفي اتجاه الحضارة والتقدم ، ولم يكن لأوروبا فحسب ، بل كان للعالم كله وضع يخالف هذا الوضع كل الخلاف ، وكانت له خريطة تختلف عن هذه الخريطة كل الاختلاف ، لو دانت أوروبا أو أحد شعوبها الكبيرة بالدين الإسلامي واحتضن دعوته وحمل رايته لما رأينا الحياة فاقدة المعنى والهدف ، ولما رأينا الدين والأخلاق فاقدة القوة والسلطان ،



ولما رأينا الحضارة متجهة إلى الهدم والتدمير ، ولما رأينا الشرق  
مجالاً للغزو والاستغلال فقط كما هو الوضع الآن .

إن في العالم فراغاً لم يملأ من قرون ، هو عدم وجود  
شعب قوي في الإيمان ، قوي في العقيدة ، قوي في الأخلاق  
والسلوك ، يحمل الدعوة الدينية الصحيحة ، ويحتضن الرسالة  
السهوية الأخيرة ، التي تواجه الحياة ومشكلاتها ولا تفر منها ،  
وتقود ركب الحياة ولا تتبعه ولا تتخلف عنه ، قوي الثقافة  
العصرية ، بارع وصل إلى درجة العبقرية والإبتكار ، نشيط ،  
كثير العمل والإنتاج ، هذا هو الشعب المطلوب لنحول العالم  
من شر إلى خير ، من هدم إلى بناء ، ومن فساد إلى إصلاح ، وقد  
كان الأتراك الذين يقودهم آل عثمان في القرن الخامس عشر  
الميلادي ، ذلك الشعب القوي الجديد الذي يستطيع أن يملأ هذا  
الفراغ الموجود في القيادة العالمية من مدة طويلة ، وقد فعلوا  
ذلك فملئوا الفراغ الموجود في القيادة الشرقية وتزعموا العالم  
الإسلامي وأفاضوا عليه قوة جديدة ، ولكنهم لأسباب كثيرة ،  
منها تأخرهم في العلوم العصرية والتنظيمات الجديدة ، وعدم  
مجاتهم للشعوب الأوربية في الإكتشاف والإبتكار ، والرقى  
والتقدم ، ومنها تألب الدول الأوربية عليه ، ورميها لهم عن قوس  
واحدة ، وتشاغلمهم بحروب لا نهاية لها ، لم يستطيعوا أن يقودوا

الغرب كما قادوا الشرق ، وأن يقودوا النهضة الجديدة التي كانت تجيش بها أوروبا ، والعصر الجديد الذي كانت تتمخض به ، فبقرا في مؤخرة الركب ، ولا يزال هذا الفراغ بعدهم ينتظر شعباً أوروبياً أو شعباً شرقياً يجمع بين قوة الإيمان وقوة العلم ، وقوة الروح ، وقوة المادة ، وخلود الرسالة الساوية وحقيقتها الدائمة ، وبين جدة العلم ومرونة العقل ، وبين ثروة الوسائل الحديثة ، وصحة الغايات والأهداف التي تمنحها الأديان الساوية ، ويحسن تربيتها وتغذيتها الدين الإسلامي الذي هو آخر الرسالات ، وهو القائد المطلوب الذي يملأ هذا الفراغ ويغير مجرى التاريخ ، ويُرغم العصر على أن ينحو نحواً جديداً ، وينح العالم المنتحر المنهار قسماً جديداً من الحياة ، وينقذه من الهاوية التي تنتظره ويسعى إليها بسرعة القوى الذرية وبسرعة الصاروخ .

إن ذلك يحتاج إلى ثورة جريئة تبذل كل الثورات التي أقيمت في الزمن القديم والحديث ، وقام بها الثائرون في ربوعك وفي أحضانك ، إنه يحتاج إلى ثورة شعب بأسره ، إنه يحتاج إلى قفزة واسعة فيها الشيء الكثير من المغامرة والمخاطرة ، والإقتحام والتضحية ، قفزة من حياة إلى حياة ، ومن منهج إلى منهج ، ومن دين إلى دين ، إنها قفزة تتمحك من القيادة والزعامة ، ومن الثقة والإحترام ، ومن المهابة والجلال ، ومن الهدوء والسكينة ، ومن الهناء والرخاء ، ما لم

يحمل به أولئك المغامرون ، الذين أقحموك في حربيين طاحتين  
مدمرتين ويجتمع لك مع القوة المادية والنفوذ السياسي الهداية  
والتوجيه الصالح ، والقدوة الحسنة ، ويتحقق قوله تعالى :

« ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم  
أئمة ، ونجعلهم الوارثين » . مع قوله تعالى : « وجعلناهم أئمة يهدون  
بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون » .



## حديث مع الشباب المسلم المعلم في الغرب

« محاضرة ألقيت في المركز الاسلامي في لندن ، يوم ١٧ أكتوبر ١٩٦٤ م (١) »

أيها الأبناء والشباب ! إنني لا أدعي النبوة أو الولاية ، ولا أتنبأ ولا أتكهن ، ولا أزعم أن لي عيناً بصيرة تهتك الأستار وتكشف الأسرار ، ولكني أحب الساعة أن أقول : إن في هذا الجمع شباباً يملكون غداً مقاليد الحكم في بلادهم ، ويتقلدون مسؤوليات ضخمة دقيقة في أيامهم القادمة ، إنكم تدرسون في هذه البلاد وكراسي الحكم وعروش القيادة والتوجيه شاغرة في أوطانكم تنتظر قفولكم وتنتظر قبولكم .

---

(١) نقلها الى العربية مجلة « البعث الاسلامي » رئيس تحريرها الأستاذ محمد الحسيني .

إنني لأرى صورة هذا المستقبل الرائع في ملامح وجوهكم ،  
وفي جباهكم الوضيئة المشرقة ، كان هناك في الزمن الماضي طريق  
واحد للوصول الى الحكم ؛ طريق الساعد المقتول والسيف  
المسلول ، وقد ضرب الإسكندر وقيصر وهولاكو مثلاً رائعاً  
في فتح العالم وتسخير الشعوب والأمم ، بظبة السيف ولسان  
الرمح ، ولكن الزمان تغير ، فأصبحت القوة الحربية لا تغني  
في ذلك إلا قليلاً ، وأصبحت القوة العلمية في الدرجة الأولى  
للحصول على القيادة والإستلاء والحكم الجمهوري .

إن الطريق الذي اتخذته الدول المتقدمة الراقية والدول  
الإسلامية في هذا العصر ، وتلك الملابس التي أحاطت بها  
والمشكلات التي واجهتها ، تبدي بوضوح ، أن الذين يرثون  
قيادتها وتوجيهها هم رجال تزلعوا من العلوم العصرية ، وأتقنوا  
اللغات الغربية ، وتزودوا بكفاءات ومؤهلات تؤهلهم إلى  
مناصب الحكم في النظام الديمقراطي المعاصر .

إن هذه الفرص والتسهيلات التي تتمتعون بها للدراسة في  
هذه المراكز العلمية والثقافية الهامة تدل على أنكم ستصلون إلى  
هذه المناصب في وقت قريب ، وهناك تجدون فرصة سانحة لأداء  
بعض الواجب نحو بلادكم وشعوبكم ، والتأثير في اتجاهها بقسط

أكبر ونصيب أوفر ، إنه امتحان خطير دقيق لكم ، لأن مصير هذه البلاد ومستقبلها يتصل بنفوسكم - على أكبر حد - اتصالاً مباشراً وثيقاً .

إن هذه البلاد التي غادرتوها وتتمون إليها وسوف ترجعون إليها إن شاء الله بعد إنهاء دراستكم ، بلاد مسلمة عريقة في الإسلام ، وهي على عهدنا القديم في الثبات على المبدأ والوفاء بالأمانة ، إنها وصلت إلى هذا الإسلام على جسر من الدماء والدموع ، فهو أحب إليها وأعلى عندها من أي شيء آخر ، إن الأغلبية الساحقة في هذه البلاد للمسلمين وكثير منها تفوق الدول الأوربية في مساحتها ورقعتها وعدد أهلها ، وإنها - فضلاً عن ذلك - تعج وتطفح بالثروات العظيمة والمعادن الكريمة ، وإنها ثروة طبيعية لا تدور بدونها عجلة الغرب ، إنها أفاضت على العلوم والصناعة قوة جديدة ، ومنحها قسطاً جديداً من الحياة والتقدم والرخاء ، وليست هناك دولة تراحم هذه البلاد المسلمة في المواد الخام .

وبجانب هذه الثروات الصامته إن شعوب هذه البلاد غنية زاخرة بالموهب الإنسانية والطاقات البشرية والقوى الخلقية والمعنوية ، ولا تزال فيها القدرة على الجهاد والحنين إلى الشهادة ، وعاطفة التضحية ، وحب الإيثار ونفحة الحب والوفاء والفداء

ما لا يوجد له نظير في شعب من شعوب العالم، إن الذين ساحوا في العالم وزاروا كثيراً من الشعوب والأمم ورأوها عن قرب وكثب يشهدون أن أي شعب في العالم لم يسبق هذه الشعوب المسلمة البريئة النقية المخلصة في هذا الشأن حتى الآن، إنها لا تزال فيها شعلة الحياة وبإمكانها أن تبرز كأكبر قوة على وجه الأرض إذا نالت القيادة الرشيدة والتوجيه الصحيح، إنها لا تزال تنفرد ببساطتها، وثقتها بقيادتها، وحماسها، وعاطفتها، وانقيادها وطاعتها، ولكن هذه الملكات والطاقات المواهب والمؤهلات لم تجد لها منفذاً ولم تجد لها مظهراً منذ أمدٍ بعيد، إن قيادتها ( Leader Ship ) تجهل قيمتها، وهي لا ترغب في استخدام هذه المواهب ولا تقدر عليه .

إذا سألتني أحد ، ما هي أهم مشكلة وأعمها في العالم الإسلامي ؟ قلت بلا تأمل ولا تلعم ، إنها مشكلة القادة والشعوب ، إنها مشكلة الفجوة الهائلة التي وقعت بينها ، والتي أدت إلى صراع فكري مستمر بين الجماهير والطبقة الحاكمة المثقفة .

إن هذه الشعوب تسميت في سبيل الإسلام، إنها تريد أن تحيا في سبيله وتموت في سبيله ، أنها لا تفهم لغة غير لغة الدين ، ولا تعرف أسماء وشعائر ومصطلحات غير أسمائه وشعائره ومصطلحاته ،

لأنها لا تتحمس لشيء غير الله ورسوله ، والجنة والآخرة ،  
والجهاد والشهادة ، وهو الهتاف الوحيد الذي تهتز له أوتار كيائها  
وتفور به دماء عروقتها ، وتحدث فيها نشوة الحب والوفاء ،  
وتهون عليها التضحية والفداء .

إن هذا الهتاف وهذا النداء وهذه الدعوة هي التي أسكرت  
المسلمين في الجزائر ، وألهبت عواطفهم ودفعتهم إلى تضحيات  
لا يوجد لها نظير في العصر الحديث وشجعتهم على المضي في  
جهادهم المرير حتى جاء وعد الله .

إن هؤلاء المسلمين يؤمنون بالشريعة الإسلامية والدستور  
الإسلامي ويشقون بسموه وتفوقه وخلوده ، إنهم يحبون المجتمع  
الإسلامي والحضارة الإسلامية ، إنهم يتمنون ويحلمون أن يروا  
الشريعة والحياة الإسلامية ، وكلمة الله عالية ظاهرة ، سائدة  
في بلادهم .

ولكن من المأسى التي يذوب لها القلب ، ويتقطع بها الفؤاد  
أن هذه الطبقة التي ملكت زمام قيادة الشعوب وحكمت  
في رقابها ، عاشت طوال حياتها ونالت تربيتها في محيط لاصلة له  
بهذه العقائد والأفكار ؛ وبهذه الآمال والأحلام ، إن جهازها  
الفكري وضع بعيداً عنها فصار غريباً عليها ، إن شباب هذه  
الطبقة وأذكياها تتقفوا وتربوا في نفس العواصم التي تدرسون  
فيها الآن ، وإن أساتذتهم اقتنعوا بهم بل غرسوا في عقولهم أن



عصر الإسلام وليّ من غير رجعة ، وأنه لعب دوره المحدود الضيق النافع إلى حد في زمن خاص مضى ، وهو لا يحمل الآن رسالة لهذا العالم المتحضر والمجتمع الكبير ، وليس بإمكانه أن يساير هذا المجتمع المتطور أو يتفاهم معه في أي حال من الأحوال .

أليس هذا من المؤلم المخجل أن تكون الشعوب مسلمة متحمسة لإسلامها ، قادرة على أن تنجب أمثال محمد بن القاسم ، وطارق بن زياد ، وموصى بن نصير ، ومحمد الفاتح ، وأن يكون قادتها وحكامها متزعزعين في ثقتهم بدينهم ، أو أنهم فقدوا هذه الثقة على الإطلاق يائسين من عودة الإسلام ، وهم لا يجدون في أنفسهم ميلاً إليه ورغبة فيه .

إنهم جاؤا إلى الغرب ليأخذوا منه وسائل وأدوات ومعلومات تنفع الإسلام والمسلمين ، إنهم جاؤا إلى الغرب ليدرسوا فيها العلوم الطبيعية والتطبيقية والصناعية وما شاكلها من العلوم التي سبق فيها الغرب على الشرق ثم يسخروها للإسلام ويستخدموها لأهدافهم الإسلامية ، ويضعوها تحت تصرفها وفي خدمتها .

إنهم جاؤا إلى هذه البلاد ليضموا علومها إلى إيمانهم ثم يفتحوا قناة جديدة بين الغرب والشرق مثل قناة السويس التي

تعرفونها ، ولكنها قناة تقوم على أساس النفع المتبادل العادل ،  
قناة تحمل بضاعة الإيمان والعمل الصالح والدوافع الحيرة إلى  
الغرب ، وتنقل ما شاعت من وسائله البريئة الصالحة إلى  
الشرق .

فماذا كان ؟!

إن هؤلاء الذين علقنا بهم الآمال الكبار ، الذين تقع عليهم  
مسئولية هذا الأمر خيبوا ظنوننا وضحكوا على ذقوننا دائماً ،  
إنهم عادوا جهالاً لا يعرفون غير التبعية والتقليد ، إن علمهم  
تجرد من أي نوع من الأصالة والابتكار والذكاء والاجتهاد ،  
ورضوا بأن يكونوا مع الحوالم والأتباع والأذيال ، بدلاً من  
أن يكونوا أئمة الهدى وقادة الإنسانية ، وحملة النور وكتائب  
الإنقاذ .

أيها الأبناء ! إنكم ما جئتم إلى اوربا لتدوبوا أمام بريقها  
كالشمعة ، إنكم جئتم هنا لبناء عالم جديد ، إن أولاد إبراهيم  
ومن دخل في دينه وملتته هم وحدهم يقدرون على بناء هذا العالم ،  
إن الأيدي النظيفة العادلة الأمينه التي رفعت قواعد البيت المحرم  
في مكة المكرمة هي وحدها تستطيع أن ترفع قواعد العالم  
الجديد من جديد .

إنكم ما جئتم إلى الغرب لتقلدوا أهل الغرب فيما درستهم فيه كالبيغاوات أو تتظاهروا أمامهم بتقليدهم ومحاكاةهم كالقروود .  
إن الشرق ليس بحاجة إلى بيغاوات وقروود أبداً ، إنه في حاجة إلى أبطال مغامرين ، وأذكياء نابهين وعلماء مبتكرين ، ودعاة مؤمنين ، يقولون للغرب إذا أخطأ أخطأت ، وإذا أصاب أصبت ، ويثرون على نظامه وحياته ، ويشنون عليه حرباً لا هواده فيها ، وينقضون عليه كالصقر ويعلنونها واضحة صريحة « كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده » .

أما أولئك الذين لا يعرفون إلا قولاً واحداً ، أصبت وأحسنت في كل ما فعلت ! فالشرق منهم بريء وهو لا يحتاج إلى مثل هؤلاء .

إنه لا قيمة للحواشي والعبيد الذين رفعوا الغرب على رؤوسهم ، وداسوا الشرق تحت أقدامهم ، إن القادة المعاصرين في تركيا وأندونيسيا ومصر لم يثبتوا تفوقهم ودورهم الإيجابي الأصيل ، إنهم ضحوا بأعز ما يملكون في سبيل القيم الغربية واستيلاء الغرب ، وكان ما نالوا جزاء على هذه التضحية شيئاً حقيراً تافه بالنسبة إلى ما ضحوا به وما فقدوه .

أيها الاخوة الأعزاء ! إن الذين أوفدوكم إلى هذه البلاد لا

يرضون منكم بأن تكونوا علماء خبراء وصناعيين ، وأدباء  
باللغات الأوروبية فحسب . إنهم يريدون منكم أن تمثلوا براعتكم  
وذكائكم وابتكاركم واجتهادكم في هذه العلوم العصرية، إذا كنتم  
طلاب الحقوق فعليكم أن تتضلعوا من التشريع الإسلامي ثم  
تدرسوا مبادئ القانون العالمي لتثبتوا تفوق التشريع الإسلامي  
إزاء القوانين الوضعية الأرضية ، وتعودوا إلى بلادكم قائلين  
شاهدين بأن الغرب الآن في أسوأ حال ، وهو كالنمر الناضج لا  
يدري أحد متى يهوي على الأرض .

أما إذا رجعتم إلى الشرق وقلتم إن الغرب كله خير ،  
وليس فيه شيء يؤخذ عليه ، فقد خدعتم أممكم وكذبتهم على  
أنفسكم .

يجب عليكم أن تشرحوا لآخوانكم بعد العودة محاسن  
الغرب ونخازيه سواء بسواء ، وتصوروا جوانبه الجميلة ، وسر  
قوته ونهضته ، والنواحي التي تجدر بالتقليد ، مع عيوبه وأدوائه  
التي تنخر كيانه ، والجذام الخلقى الذي أصابه ، والنواحي التي  
يجب أن نقتطعها ونفر منها كما يفر الصحيح من المجدوم ، والأمور  
التي لا تجدر بالتقليد والاتباع ، والتي لا صلة لها بقوة الغرب  
وسر نهضته واستيلائه على العالم .

أيها الإخوان ! إنني إذا أعدت ما قلت لكم الساعة أمام

القادة والزعماء السياسيين في كراتشي وجاكرتا والقاهرة ،  
ودهلي أو أي عاصمة شرقية كان ذلك بعد فوات الفرصة ،  
لأنهم وصلوا إلى نقطة لا عودة منها ، ورسخت فيهم الأفكار  
والعادات ، إلى حد لا يمكن تحويلهم منها ، إن العقلية والتفكير  
والقلب يُصنع في هذا المعمل ويعمل عمله في الشرق ، فالمحل  
اللائق لهذا الحديث ، المحل الذي يصنع فيه هذا الجهاز الفكري  
هو أنتم الذين ستقودون بلادكم وشعوبكم في المستقبل فإذا  
أدر كتم مدى قوة أمتكم وأهميتها وآمنتكم بقوة الاسلام الداخلية  
وحيويته ، فقد أصبتم الهدف وحققتم الأمل .

إن هذه البلاد العظيمة الغنية التي تنتمون إليها أمانة في أعناقكم ،  
إن هذه القوى الكبرى وهذا المجتمع الكبير هو من حسن  
حظكم وسعادتكم ، فسيروا على بركة الله واستعرضوا اقتصاد  
هذه البلاد وذاخيرها وثروتها الطبيعية والإنسانية ، واستخدموا  
علومكم وخبرتكم في الانتفاع بها في سبيل أهدافكم الإسلامية  
البعيدة ، واضربوا مثلاً في الاخلاص والخدمة التي لا تشوبها  
منفعة ذاتية ومصصلحة شخصية .

إنكم إذا فعلتم ذلك ووصلتم إلى مكانتكم اللائقة في  
القيادة الإسلامية ظفرتكم بكلمة باقية وقمة عالية في التاريخ  
والإنسانية ، قمة لم يصل إليها بل لم يحلم بها كمال أتاتورك ، وجمال

عبد الناصر وبن بيلا، وأحمد سوكارنو، ولا أي قائد آخر في الأقطار الإسلامية بأسرها، إنها مكانة الحب والقبول العام وإحياء الإسلام، مكانة العمل الخالص لوجه الله والجهاد لإعلاء كلمة الله وهي مكانة لا يتشرف بها إلا أفاض من السعداء في التاريخ .

إنه الطريق الوحيد الذي ينقذ العالم الإسلامي من ذلك الصراع الفكري والتنازع الطبقي والفوضى الفكرية .

أيها الاخوة الأعزاء !

إعرفوا نفوسكم واعرفوا شعوبكم وتأملوا في هذه الإمكانيات الواسعة العظيمة المدهشة لفتوحكم وانتصاراتكم وطموحكم وطيوانكم، واكتشفوا هذا العالم الجديد المجهول الذي انصرف عنه المغامرون وزهد به الطامحون .

وإذا لم تُصغوا إلى حديثي، فاصغوا إلى حديث قلبكم وإذا لم تفهموا الغتي فافهموا لغة ضمائركم وأنصتوا إليها .

## (١) إلى الشاب المسلم المقيم في ديار الغرب

أخي العزيز !

تحياتي إليك على بعد الدار ومن وراء البحار، تحيات صادرة من قرارة القلوب وأعماق النفوس ، مغمورة بالاخلاص وعاطفة الأخوة الإسلامية الصادقة .

إن وجودك في قلب أوروبا أو أمريكا وفي مصدر الحضارة الغربية العالمية والنشاط الثقافي أو الصناعي الذي غزا العالم ، لا اعتبره حادثة اضطرار لم تكن عن رضا واختيار ، ولا مأساة تستحق المواساة ، إنما اعتبره - مها كانت الأسباب والدوافع لهذه الهجرة المؤقتة أو الدائمة - هبة من الله وتيسيراً منه وفتحاً من الفتح التي سعد بها الإسلام والمسلمون في تاريخهم الطويل .

---

(١) كتب باقتراح المركز الاسلامي في جنيف ، نشرته مجلة « المسلمون » في عددها الثالث من سبتمبر ١٩٦١ م ص ١٦ .

إنها سعادة ومكسب لك في حياتك الشخصية المحدودة ،  
وسعادة ومكسب للمجتمع الذي تعيش فيه ، المجتمع الذي قدر  
له أن يسوق العالم ويملي عليه إرادته وهواه . المجتمع الأوربي  
بالمعنى الواسع الذي يشمل أمريكا وروسيا .

إنها فرصة تفتح فيك كوة جديدة للإيمان والثقة بالإسلام ،  
والاقتناع بما حواه القرآن ، ودعوة الأنبياء في عصورهم ، ودعوة  
آخر الرسل في عصره الذي لا نهاية له إلا بنهاية هذا العالم  
ونهاية الحضارة البشرية ، كوة لا تفتح إلا في مثل المجتمع الذي  
تعيش فيه اليوم ، وفي « معمل » الحضارة الغربية الذي لا يوجد  
في الشرق وفي بلاد الإسلام ومهد الحضارة الإسلامية .

وهي تفتح كوة جديدة في المجتمع الأوربي ، تجربة جديدة  
في عالم الأفكار والقيم ، وصدمة للفكر الأوربي ، وتحريك له  
بعد ما جمد وتوقف عن الابتكار والثورة منذ زمن طويل .  
واشتغل بالاعادة وعمل « الاجترار »<sup>(١)</sup> لا يطلب جديداً أو لا  
يأتي بجديد .

أما فيما يخصّ نفسك - أيها الشاب المسلم المغترب - فقد

---

(١) اجتر البعير : أعاد الأكل من بطنه فمضغه ثانية .



قالوا إن المجتمع الإنساني المتمدن يمكن ، لا بل يجب أن يقوم على غير أساس الإيمان وتعاليم الأديان والقيم الخلقية والرسالات السماوية ، إنه يستطيع أن يقوم على أساس العلم والتنظيم ، والصناعة ، والاقتصاد ، والوعي السياسي ، والقومية ، والوطنية ، والاتفاقات ، والتعهدات الاجتماعية الدستورية ، وإن المجتمع يسعد ويترفه بالوسائل والآلات التي تمنحها علوم الطبيعة والكيمياء ، وتسخير الكون والطبيعة لصالح الإنسان ورغباته وطموحه ، وتذليل العقبات التي كانت نتيجة الجهل للعلوم الكونية والطاقات البشرية ، وإن سر سقاء الإنسان في العصر الماضي صعوبة التعارف والتفاهم بين أعضاء الأسرة الإنسانية في أنحاء الأرض ، وفي مختلف القارات والأقاليم .

لقد ألح الغرب على هذا المعنى وتحمس له تحمس المؤمنين الجدد، وكان هتافه « لا إله ولا دين ، ولا غيب ولا إيمان ، ولا روح ولا أخلاق ولا آخرة » وإنما هو حس وتجربة ، أو لذة أو منفعة ، أو قومية ووطنية ، أو غريزة وعاطفة ، أو ديمقراطية وجمهورية ، أو اشتراكية وشيوعية . وبرز في الميدان أئمة هذه الفلسفات وأبطال هذه الدعوات وتلاميذهم ومعارضوهم على اختلاف فلسفاتهم ونزعاتهم وكثرة مذاهبهم ، وتوزعوا العالم الغربي ، وخضع لهم كل شيء وازدهرت مدارسهم مدة طويلة ، ولا تزال تسيطر على العقول والآداب ، ومراكز السياسة ودور الاختبار ،

والمجتمع الأوربي المعاصر قد اقتبس من كل هؤلاء وتأثر بمجموعهم في قليل أو كثير، وآمن بالقدر المشترك بينهم وهو « المادية » .

مُنحت أوروبا فرصة تحقيق هذه المبادئ التي آمنت بها في سخاء وحرية لا نظير لها في تاريخ الحضارات ، وهي أطول فرصة مع أعظم مقدار من الآلات والوسائل والتسهيلات التي تمنح القيادات في التاريخ ، على يد عمالقة نوابغ عبقرين في العلم والإختبار والتنظيم والإدارة ، وليست على وجه الأرض قيادة تعارض هذه القيادة أو دولة قوية تعرقل سيرها ، وقد وضعت الكنيسة النصرانية أوزارها قديماً أمام طموح أوروبا المادي والفكري ، والنهضة العقلية الوثابة التي لا قبل لها بها ، وخضع الشرق الإسلامي لغزواتها السياسية والفكرية ، في القرن التاسع عشر المسيحي وخلاها الجو ، ودان لها العالم بشرقه وغربه وشماله وجنوبه .

لقد أمكن أوروبا المادية أن تبرز جميع مواهبها ، وأن تمثل « المادية » على المسرح العالمي في جو مملوء بالهتاف والتصفيق ، والتأييد والتصديق ، فإذا كان لمسرحية في العالم أن تنجح كان ذلك لهذه المسرحية التي يمثلها أربع رجال في أوفق أحوال .

ولكن ماذا كان؟ أخفقت هذه المسرحية التي كانت حصيلة

أذكى عقول بشرية وأغنى قرائح إنسانية في أهدافها ومرامها  
إخفاً لم يعرف في التاريخ .

عداء داخلي وخارجي ، وصراع بين الأفراد والطبقات  
والشعوب ، غيوم الحرب الكثيفة التي تغطي العالم كله وبركان  
متهيبه للانفجار لأدنى مناسبة ، ونذر صارخة لنهاية البشر الأليمة  
وفقدان الثقة والهدوء والأمن العاطفي ، وتسلب الذعر والفرع  
على الأعصاب ، وقلق دائم ، وتفسخ خلقي كبير يتخطى  
القياس ، وفراغ روحي هائل لا يملؤه شيء ، وسامة لا نهاية لها  
ولا علاج ، وتشاؤم ويأس وحيرة .

إن قصة إخفاق الحضارة الغربية قصة معادة مكررة ،  
ولكنها قصة يجب أن تُروى وتُتلى ، وتعاد وتكرر ، وهي قصة  
تهم الإنسان في كل مكان وتتصل به . وبجياته من أقرب طريق ،  
ولأن في الشرق من لا يزال يؤمن بعصمة هذه الحضارة وقدها  
ولا يصدق أن مثلها يخفق ويخيب ، أو أنها قد أفلست في  
معنوياتها وهو يراها تبرهن على وجودها وقوتها في الشرق  
والغرب .

إنك أيها الشاب المسلم المغترب بسمع ومرآى من هذه  
الحضارة ، تكتوي بنارها وتعيش في وسطها ، وتشاهد إخفاقاتها

وتهيؤها للانهار في كل مكان ، تشاهد ذلك في أخلاق الساسة وقسوتهم وموت العاطفة الإنسانية في قلوبهم ، وفي أخلاق الشعب ، ورخص قيمة الأعراض في عينه ، وهدر الكرامة الإنسانية وضياع القيم الخلقية وفشو الجنابات والسفالات في المجتمع ، وعجز قادة الفكر والسياسة عن إيجاد رسالة إنسانية تنفخ روحاً جديدة في المجتمع ، وتسوق الأمم نحو هدف واحد وتجمع شملها ، وعن ملء الفراغ الروحي وعن إعادة الهدوء والسلام ، والثقة بالإنسان ومستقبله إلى غير ذلك مما يتسم به هذا المجتمع الراقي الذي بلغ أوج الحضارة والتنظيم والوعي .

يتجلى لك بعد ما شاهدت هذه الآثار أن كل مجتمع لا يقوم على أساس « الايمان » إنما هو مجتمع يقوم على شفا جرف هار ، لا بد له أن ينهار ، وإن طال أمده واتسع سلطانه ، ولا سبيل إلى « الايمان » إلا دعوة الأنبياء والرسل وسيرتهم ، الذين يملأون الأمم الواسعة والجمهير الكثيرة بالروح الخلقية وقوة الايمان والإنسانية السامية التي ليس فوقها إلا الصفات الآلهية ، ويشعلون قلوب الملايين - من غير مدارس وجامعات ومجامع علمية ووسائل للنشر والتأثير - إيماناً وحماسة وزهداً في المطامع والزخارف ، وقوة مقاومة للشهوات وإيثاراً للآخرة على العاجلة ، وإيثاراً لغيرهم على نفوسهم ، وحباً لله الذي لا يروونه بعيونهم ولا تتناولوه حواسهم ، والتفاني في رضاه . وهذه سيرتهم ، وكتب التاريخ

تحكي عنهم وعن أتباعهم كل غريب وكل معجب ، ولولا التواتر ، ولولا الآثار لسارعت النفوس إلى تكذيبه والشك فيه ، وهم الذين أنقذوا البقية الباقية من الحضارة والمجتمع البشري من رسل المهجبة والفضى والوحوش مرات عديدة ، وحفظوا السفينة البشرية من الغرق في آخر لحظة ، وفيها التراث الحضاري وكل ما سآده البشر في آلاف من السنين ، وصانوا القيم الخلقية والمفاهيم الصالحة من الضياع والتلف إلى آخر الأبد ، ومدوا في أجل السلالة البشرية ومنحوها - بمجاهد الطويل وإخلاصهم العميق - حق البقاء وجدارة الحياة .

ومن المقرر المشاهد الذي لا شك فيه أن هذه الأديان التي أسعفت الإنسانية في أزمتها ومحنها المختلفة ، وفضلها لا يُنسى في تاريخ المدينة ، قد فقدت قوتها وحياتها مع امتداد الزمان وطوارق الحدثان ، وأصبحت فتيلة قد نفذ زيتها واحترق خيطها ، أو كحجوب عصرت إلى آخر قطرة فهي لا تسمن ولا تعني من جوع ، وهي ليست من القوة والحياة بمكان تستطيع فيه أن تقاوم هذه المدنية القوية واغراءاتها الجارفة ، وليس في الذين لا يزالون يدينون بها ويحملون أسماءها ثقة بهذه الأديان وصلاحتها لكل زمان ومكان ، وحماسة للدعوة إليها والجهاد في سبيلها ، ولواجهة المدنية العصرية وتحدياتها ، وجلهم أو كلهم قد وضع أوزاره أمام المادية الغربية واعتزل المعترك ، وآمن بأن «المادية»

لا مفر منها ، وأنها مصير الإنسانية المحتوم .  
إنما هنالك - أيها الأخ المسلم الشاب - دين لا يزال في  
حياته وأصالته ونقائه ، ولا يزال أهله يعتقدون أنهم مأمورون  
بتبليغ الرسالة وإنقاذ المدينة والحسبة على الإنسانية ، ومسئولون  
أمام الله وأمام الخلق عن اتجاهات هذا العالم ، ويمتازون بين أهل  
الأديان بأربع ميزات بارزة :

أولها : وجود هذا الكتاب العظيم المتدفق بالحياة الكفيل  
بسعادة البشرية وتوجيهها ، يحمل أعظم علم وأعمق بين دفتيه ،  
ويملك أعمق تأثير في القلوب والعقول ، وهو ثروة البشرية العظمى  
والمعين الذي لا ينضب ، والمدد الذي لا ينفد ، قد أحدث  
أعظم ثورة في تاريخ البشرية ، ويستطيع إذا وأطلق له العنان  
وُحكّم في قيادة الإنسان أن يحدث أعظم ثورة أخرى .

والميزة الثانية : هذه السيرة النبوية العطرة التي هي أجمل  
صورة على الإطلاق في مجموع الصور البشرية الغنية ، وأعظم  
صفحة مشرفة في تاريخ البشر تعيد إلى الإنسانية كرامتها  
ومكانتها ، وتعيد الثقة والاعتزاز في نفس الإنسان بأشرفية  
النوع الانساني ، الصورة التي لا يملك أمامها الإنسان - إذا لم  
يفقد حس الجمال وحب الكمال - إلا أن يفتخر بأنه من نوعه  
ومن بني جنسه ؛ ويتمنى أن يتسامى بتقليده للصورة التي يجد

فيها كل انسان قوة وسكينة وأسوة وقدوة ، وحياة وتوجيها ،  
وجوانب مشرقة تفتح منافذ جديدة ، وتثير معاني جديدة ،  
وهذه الصورة لا تزال بصلاحها وقسماتها الأصلية لم تطوها يد  
الزمان .

**والميزة الثالثة:** وجود الشريعة الإسلامية كما تركها صاحب  
الرسالة محفوظة في أصلها وأساسها ، غنية في ثروتها الفقهية ، صلبة  
مرنة لا تتنازل عن القديم ولا تتجهم للجديد ، لا تنجبل من  
ماضيها ولا تفر من حاضرها ، تالدة خالدة ، صالحة لكل عصر  
وبيئة ، تعطي الأسس الحكيمة التي يقوم عليها مجتمع جديد  
وحضارة صالحة .

**والميزة الرابعة :** وجود العاطفة الدينية القوية في المسلمين ،  
على علاقتهم ومواقع الضعف فيهم ، وانقيادهم للدعوة الدينية  
وخضوعهم لها إذا وُجدت الدعوة المخلصون ، وهذه قوة قد فقدتها  
وأفلس فيها عامة الأمم الغربية ، وهي قوة لا يعرف قيمتها إلا  
من اشتغل بالدعوة والتجديد الديني في أمة من الأمم ، ومن  
رأى إخفاق هؤلاء الدعاة في إعادة الحياة الدينية والروح الدينية  
في هذه الأمم .

وأنت أيها الأخ المسلم المغترب في أوروبا وأمريكا تشارك هذه  
الأمة العظيمة في هذه الميزات ، وأنت عضو في هذه الأسرة العظيمة  
ورثت كل ما ورثته أمركت الإسلامية العالمية ، ليس بالمعنى

الذي يفهمه الجهلاء من عضوية أسرة كريمة فاضلة وليس بمفهوم التراث كما يتصوره كثير من الباحثين والمستشرقين فيضعون كتباً في التراث الإسلامي (Legacy of Islam) ولكن بالمعنى الرفيع العميق الذي يفهمه العقلاء من أعضاء أسرة مثلت دوراً ممتازاً في خدمة العلم والدين، فعليك أيها الأخ الفاضل أن تدرس الإسلام من جديد، وفي ضوء هذه الميزات التي عرضناها باختصار وأن تفقه الإسلام وتجيد فهمه وتتعمق في دراسته، وأن تقبل على استعراض القرآن والتدبر فيه كأنه كتاب عرفته حديثاً، وإن شئت فقل نزل انقفاً جديداً، وأن تدرس السيرة النبوية والحديث النبوي وتكثر من قراءتها، وتحاول أن تتصل بالرسول الأعظم ﷺ إتصلاً شخصياً، إتصلاً مؤسساً على الدراسة والتفكير والحب والعاطفة والإجلال والتقدير والإتباع والتقليد.

ثم عليك أن تمثل هذا «الاسلام» تمثيلاً صحيحاً في أوروبا وتظهر بالعقيدة الاسلامية وتحافظ على فرائض الاسلام وأخلاقه وشعاره في شجاعة وثقة، لأنك تمثل أفضل دين وأصح عقيدة في بيئة تفتقر إليها أشد افتقار، وبذلك تحسن إليها وتحسن إلى كثير من زملائك وإخوانك المسلمين وإلى الذين هم في سنك في الشرق الإسلامي الذين يخرجون من تمثيل الاسلام والظهور في مظهره في الحواجز الإسلامية والجامعات العربية، وتسن لهم



سنة حسنة لك أجزها وأجر من عمل بها، وبهذه الحياة الإسلامية  
الزينة العفيفة التي فيها الصلاح والتقوى ، والصدق والأمانة ،  
والذكر والعبادة ، والرضا والقناعة ، والنشاط والقوة ، ورقة  
العاطفة واشراق الروح، تستطيع أن تجذب إلى الإسلام عدداً  
كبيراً من أصدقائك وزملائك وأساتذتك، وجيرانك. وهكذا  
دخل العدد الأكبر من المنصفين والعقلاء في حضارة الإسلام في  
البلاد التي لم يغزها جيش إسلامي ولم يلمع فيها سيف مجاهد .

قد تكون أيها الأخ الكريم تلميذاً في جامعة ، أو عاملاً في  
مصنع ، أو موظفاً في مصلحة ، وقد تكون صغيراً في ثقافتك  
أو وظيفتك أو مكانتك الاجتماعية ولكنك كبير في عقيدتك  
ودعوتك ، فأساتذتك في الفنون التي تدرسها أساتذة وشيوخ لهم  
عليك حقوق وفضل ، والإسلام أول من يعرف لصاحب الفضل  
فضله ولكنهم في حاجة إلى أن يفهموا الإسلام ويروه بمثلًا في  
شخصك ، وأنت بذلك في منزلة المرشد والموجه ، فاعرف  
قيمتك ، وقدر مسؤوليتك وأدِّ حقوقها وأحسن القيام بها .

وأعود فأقول إن وجودك في أوروبا وأمريكا فرصة غالية  
يجب أن تنتهزها ، ويجب أن تستغل لصالح الإسلام ولصالح  
الإنسانية ، ووجودك في هذه البلاد يقوي إيمانك وثقتك بالدين  
الذي أكرمك الله به ، ويفتح طريقاً جديداً لتقدم الإسلام في

في هذه البلاد وانتشاره في هذه الناحية التي حرمت نعمة الإسلام  
من زمن بعيد ، وتهيأت لها القيادة والسيطرة على العالم فكان في  
ذلك شقاؤها وشقاء الناس لأنها كانت من غير منهاج نبوي ،  
ورسالة سماوية عالمية ، ومؤهلات خلقية وروحية ، ولعل  
وجودك وجهادك يتداركان هذا الحلل ويملأن هذا الفراغ ،  
والله ولي التوفيق.

## (١) إلى قيادة من نوع جديد

ليس يجهل أحد ما بين الأمم والحكومات ، والأحزاب والجماعات من منافسة حادة وصراع عنيف ، لا يخلو منه بلد ولا مكان ، وقد تجلى صراع الأمم والحكومات في الحرب الأولى والثانية ويتجلى صراع الأحزاب والجماعات في الانتخابات وفي تغيير الحكومات ، وسقوط الوزارات ، ويتجلى صراع الأفراد في اللجان والهيآت ، إن المنظمات والأفراد كلهم في تنافس شديد ، وصراع دائم فهل فكرتم فيما هذا التنافس ولأي شيء هذا الصراع ؟!

إن وضع الجهاز الإداري للإنسانية وإن اتجه المجتمع ليس فيها كبير خلاف من الأحزاب والهيآت ، وبين الشعوب

---

(١) خطبة ألقاها المؤلف في بلد صناعي كبير في الهند في حفلة كبيرة حضرها عدد كبير من غير المسلمين ومن أعضاء الأحزاب السياسية نقلها إلى العربية لمجلة « المسلمون » الغراء الاستاذ رضوان على الندوي .

والحكومات ، فليس هناك صوت يعلو ضد كل ما يجري من  
العبث بكرامة الإنسانية والإهدار لقيمها الرفيعة وإفساد  
الحياة العامة ، إنما الخلاف فيمن يتولى إدارة هذا الجهاز  
فكل ينادي بأعلى صوته إلينا ! إلينا ! يجب أن نتنازنا نحن  
لإدارة هذا الجهاز المضطرب ! وكأنه لا اعتراض على أن الآلة  
تدار في غير وجهتها ، إنما الإعتراض كل الاعتراض والنقمة كل  
النقمة على أنها لا تدار بيدنا نحن ، فالجشع والأثرة ، والرشوة والحيانة  
والفسق والتحلل كلها سائغ مقبول لا نكر فيه ولا ضير ، إنما  
الضير كل الضير أن لا يجري كل ذلك تحت إشرافنا ولا يكون لنا  
شرف حراسته ورقابته ، ولا يكون لأصدقائنا أو أقربائنا أو  
رجال حزبنا أو بني قومنا فرصة التمتع بهذه الأوضاع .

على هذا الأساس تحاربت الأمم وعلى هذا الدرب سارت  
انكلترا وأمريكا وروسيا وفرنسا ، فحنقت كل منها على الأخرى  
أن تكون هي المسيطرة على العالم والمشرقة وحدها على كل ما  
يجري من فساد ودمار وعبث وهزل ، وكذلك شأن الأحزاب  
والجماعات ، إنها لم تغضب قط للحق المضاع ، أو لأن أخلاق  
الإنسان إلى انحطاط مفرع ، أو لأن الرذائل قد طغت على  
الفضائل ، أو لأن النزعة الجنسية جامحة عاتية ، أو لأن  
الحكومات قائمة على الجور وابتزاز الأموال والمحسوبيات ؛ إنها  
تغضب لأن كل ذلك يجري تحت إشراف دولة أخرى ، أو  
عصابة أخرى ، وهي التي تنتفع بهذا الوضع ، وترجع فائدته

إلى تلك الدولة أو إلى هذه العصابة ومن يتصل بها من أسر  
وأفراد وأنصار ، فليس الخلاف في هذه الأوضاع الاجتماعية  
الفاصلة المضطربة ، وليس الحرص على إصلاحها وتقويتها ، إنما  
الخلاف والنزاع على من يتسلم زمامها. ويشرف على هذا الظلم  
والإجرام ، ويتمتع أنصاره ومرشحوه بالفرص التي تتيحها  
هذه الفوضى ، ومن يقيم أفراحه على أشلاء المسلوبين المنكوبين ،  
ويشيد صرح كبريائه على أنقاض الإنسانية المحطمة .

ترون في كل بلد وإقليم بعد الانتخابات مجلس على كرامي  
المناسب أناس جدد بعد فترة من الزمن، فهل رأيتم أحداً يدخل  
المجلس وهو يحمل في دماغه فكرة من العمل جديدة ودستوراً  
للحياة جديداً ، وفي قلبه عاطفة لخدمة الإنسانية ملتهبة ؟

هل هناك هيئة حكومية جديدة تقوم لتمنع الرذائل  
والمفاسد وتقيم في وجهها سدوداً ، وتستمر لخدمة الإنسانية  
مخلصة لا غرض لها وراء ذلك ولا مطمع ؟! إن الذي نراه  
ونشاهده كل يوم أنهم جميعاً يحملون فكرة واحدة ومنهجاً للحياة  
واحدًا وعاطفة واحدة - هي الأثرة وانتهاز الفرص - لأجل  
ذلك لا يحدث أي تغيير جوهري في الأوضاع القائمة مها تغير  
الرجال وتغيرت الحكومات وتداولت الأحزاب .

أما الأنبياء عليهم السلام فهم مجاربون الرذيلة أينما وجدت  
ومجاربون أهلها ، وإن كانوا عشيرتهم وذوي قرباهم ، ويقبلون  
الأوضاع الفاسدة رأساً على عقب ، ولا يشفع عندهم للرذيلة  
وبقاءها ولا يبرر وجودها أن القائمين عليها هم أعضاء أسرهم أو  
أفراد أمتهم وأن الفائدة ترجع إلى أقاربهم ومن تربطه بهم  
أواصر الأخوة أو القرابة أو الجنسية ، إنهم لا يرضون بتبديل  
السادة والمشرفين إنهم يلحون ومجاهدون بكل قواهم لتبديل  
الرذيلة بالفضيلة ، والكفر بالإيمان ، واتباع الهوى باتباع الهدى ،  
والجور بالعدل ، وهم أولياء كل من قبل هداية الله ، وأحب  
الإنسانية وخدمها بإخلاص ، كائناتاً من كان ، وبصرف النظر  
عن الأجناس والأوطان ، والسلالات ، والألوان ، وهم أعداء  
من نسي الله والدار الآخرة ، وعبد نفسه وشهواته واستعبد  
الإنسان وسخره لذاته واستخف بالإنسانية سواء كان عربياً  
أو عجمياً .

إن إنسان القرن العشرين يؤمن بأنه حر مطلق في أهوائه  
وميوله وإرضاء شهواته ، وهو صديق من يرخي له العنان ويمنحه  
أعظم مقدار من هذه الحرية والإنطلاق ، ويتيح له أعظم الفرص  
للمتعة بالشهوات واللذات ، ويفرض عليه أقل مقدار من  
المسئوليات والتبعات ، وقد عرفت الأحزاب السياسية هذه  
النزعة وعرفت أنها الزر الكهربائي للوصول إلى القيادة والرئاسة ،

وأنها العصا السحرية لتسخير الجماهير واكتساب الشباب الناثر ، وإغراء الطبقات المختلفة ، تتملق الجمهور وتخطب وده وتساومه بالوعود المعسولة والحريات الممنوحة ، وفرص الإعتداء المتاحة ، وتتسابق فيها وتبأرى كتسابق التجار في المناادة ، وكل منها تقول بصراحة ، بل بوقاحة لو تسامنا زمام الأمر لقضينا حاجات غرائزكم ومطالب شهواتكم تماماً ، ولهيئنا لكم سبل المتعة واللذة والرخاء بسخاء ، فإن أردتم قضاء مآربكم الجسدية وحرية الشهوات وإنطلاقها واكتساب الأموال والأرباح ، فرشحونا للإنتخاب ، وصوتوا المرشحين نخشد لكم كل وسائل - الترف والبذخ والمتعة والتسلية ، وسموا ذلك في بعض الأحيان « رفع مستوى معيشة الأمم المنحطة » .

وبهذه الرشوة الخلقية أفسدوا أذواق الشعوب كما تفسد عادات الصبيان بإغرائهم بالحلوى ، وهذه ظاهرة لا تقبل الجدل ، إن الأحزاب والحكومات قد خدعت الشعوب عن نفسها ، وأنزلتها منزلة الأطفال الصغار فهي تغريها بالمتعة الرخيصة والمنافع العاجلة ، وتلهب أهواءها ، وتفسد عاداتها ، ومن طبيعة الإنسان أنه كلما أجب إلى طلبه ازداد طلباً ، إن الإنسان إذا شاهد قصة غرامية في السينما أو تمثيلية طلب تمثيلية أكثر إثارة للفرجة الجنسية من الأولى ، وأغرق في العري والتبذل ، ولا يزال يتدرج هكذا في طلب المهيجات الجنسية ، والقصص الغرامية ،

حتى تعجز دور التمثيل والواضعون للقصص عن إشباع نهمته ،  
وهذا سر إسراف دور التمثيل في الروايات الغرامية والجنسية  
وإسفافها وتبذرها . في أمريكا وأوروبا ومصر ( للأسف الشديد )  
وإغراق كتاب القصص في الغرام والأدب المكشوف .

أما الأنبياء وأتباعهم فطريقتهم عكس ذلك ، إنهم مهذبون  
حاجات الغرائز ، ويهدّون من سورتها ، ويقولون إن تركيز  
الإنسان جهوده كلها لقضاء ميوله كاملة عمل غير طبيعي ، وإن  
عادة إشباع الشهوات خطر ونذير سوء على الإنسان ، فلا بد من  
كبح جماحها ، إنها نظرية خاطئة سخيفة أن تطلق الغرائز كالمحل  
الهائج ، حبله على غاربه ، ثم لا يكتفى بذلك بل تشجع وتغذي ،  
ولما ظهرت عواقبها الوخيمة وبدت ويلاتها واستشرى الفساد في  
المجتمع اشتكى منه الاجتماعيون وقاموا وقعدوا من غير جدوى  
فقد أفلت الزمام وطمّ الوادي على القرّي<sup>(١)</sup> .

إن أحزاب العالم السياسية لا تقوم على أساس خلقي لأنها  
تسلم بنظام الحياة القائم ، هذا النظام السائد الذي هو أشبه بفرس  
جموح لا لجام له ، يعدو على غير هدى ويعيث في حقن الإنسانية  
ويتلف مزارعه ، ويحبط جهود المصلحين وتلك الأحزاب تلهب

---

(١) القرّي : سيل الماء من الروة الى الروضة .



ظهره بالسياط يستمر يعدو ويدوس ويعيث في الأرض فساداً،  
فكان الحياة ليست إلا حلبة سباق الحياول الجاحمة الطليقة  
من اللحم .

إن القيادة العالمية قد ضلّت الطريق ، وما دام هذا الوضع  
الشاذ فإن السرعة ( التي أصبحت إلّه العصر الحاضر ) وتوفر  
الوسائل المادية ، وتقدم العلم والصناعة والعلوم الطبيعية لا يزيد  
البشرية إلا بعداً عن الغاية وقرباً من الهاوية .

إنه ما لم يتأصل الإيمان بالله واليوم الآخر في النفوس لا يمكن  
أن يتغير الموقف ولن يحظى العالم بطراز رفيع فريد للإنسانية ،  
إن حاجة المجتمع اليوم هي حاجة إلى تطهير النفوس من حب  
الجاه والمنصب والمال وتربيتها على الإيثار والتضحية وإنكار  
الذات ، والتفاني في صالح الجماعة ، ولن يتأتى ذلك إلا عن  
طريق الإيمان العميق المخلص .

إن رسول الله ﷺ قرر أن لا يعطي المنصب من يطلبه  
ويحرص عليه وكان الزهد في المنصب مرشحاً للإنسان مرجحاً  
له على أقرانه وزملائه ، أما اليوم فترون عكس ذلك ، فزعماء  
اليوم يمتدحون أنفسهم ويطرونها بكل وقاحة وجسارة ،  
ويتحياون للوصول إلى المنصب ويستحلون في سبيل ذلك كل

زور وكذب وخديعة ، أما أصحاب محمد ﷺ فكانوا لا يكادون يفكرون في مثل ذلك ولا يخطر لهم على بال ، كان عمر رضي الله تعالى عنه ، يعرض المناصب الخطيرة على أكفأ فإيون أن يحملوها ويشفقون منها ويعتذرون بضعفهم وعظم المسؤولية والأمانة ولا يقبلون إلا بعد إلحاح نزولاً على ما تقتضيه مصلحة الأمة وحرصاً على الخدمة وكان الواحد منهم يستقيل فلا يقال ، وإذا أقبل اطمان وارتاح .

إن خالد بن الوليد القائد العام لقوات المسلمين - وكان مرهوب الجانب مهاباً عند الأعداء - يتسلم في جبهة المعركة خطاباً عادياً من خليفة المسلمين بالمدينة ياقالته من منصبه وتعيين أبي عبيدة بن الجراح مكانه فلا يحزن ولا يالم كأن لم يحدث شيء ، ويتنازل عن القيادة بكل هدوء ويستمر في أداء مهمته بنشاطه السابق وإخلاصه القديم ، حتى لا يشعر الناس بتغير في القيادة ولا بتغير في موقفه ، أما اليوم فحال الناس كما نعلم ، ولو أن شيئاً مثل ذلك حدث لثار له غبار وعلا دخان ولضاعت المصالح بين تضارب الأهواء .

إن الرغبة في الجاه والحرص على المال والأناية الطاغية التي قد استحوذت على الناس ، وتحكمت في أكثر الشئون ، وسيطرت على العقول والنفوس ، وارتباط الإنسان بمصالحه

الشخصية مؤثراً لنفسه وهواه... إن استمرار ذلك كله لا يمكن  
أن تقوم معه للحياة قائمة !

إن حاجيات الحياة قائمتها ليست بطويلة ، بل الكاليات هي  
التي طالت وتضخمت قائمتها ، وكلّ يبيني الحياة على أساس هذه  
الكاليات ، وقرّروا أن غاية الحياة والإستمتاع بلذائدها ،  
جعلوا البطن والنفس ربّاً وإلهاً ، وكفروا بالله وحجّجوا سلطانه ،  
ونظروا إلى الإنسان كأنه حيوان متقف وسعوا في قضاء شهواته  
بأقصى ما في الوسع ، هذا هو رأس الفساد وأصل الداء ، وما  
دام هذا الأساس الذي يقوم عليه صرح المدنية فستذهب كل  
جهود الاصلاح هباءً وسدى ، ولن تصلح الإنسانية ولن يصلح  
المجتمع ولن تصلح قرية واحدة فضلاً عن مدينة أو قطر .

إن أفراد المجموع الإنساني وخلايا المجتمع ناقصة فاسدة ،  
وقد نشأت على أساس غير سليم ، والجماعات لا تتكون إلا  
بالأفراد ، فما داموا هم ليسوا بالصالحين الراشدين لا يمكن أن  
تصلح الجماعة وتتنظم أمورها .

إذا أثير في مجلس موضوع تكوين الأفراد وإعدادهم عبس  
الناس وتقطبت جباههم ، إنهم يتوهمون أن الأفراد والوحدات  
يستقيم أمرها بنفسها حين تصلح الجماعة ! إذا قيل لصاحب البناء

إن هذه اللبنة التي تريد أن تبني بها البيت فاسدة واهنة لا تحمل عبء البناء ، وذكرت له عيوبها لبنة لبنة ، قال دعنا من هذا الفضول ، إذا قام البناء وتمت العملية صلحت اللبنة كلها ، وإذا قيل لنجار أو صاحب سفينة أن هذه الألواح التي تتركب بها السفينة منخورة متآكلة ، وإن السفينة التي تتركب منها لفي خطر وإن الناس الذين يركبونها ويشقون بها البحر لفي خطر ، هزىء وقال أنت وسأئك إننا لا نحمل الناس على هذه الألواح المفردة ، إنما نحملهم على هذه السفينة المركبة والسفينة المركبة غير الألواح المفردة !!

كيف يتصور أن تتكون وحدة طيبة قيمة من خلايا رديئة سقيمة؟! كيف يُصدق أن اللبنة فاسدة واهية، وتعود صالحة في البناء ، والألواح منخورة متكسرة وتعود سليمة قوية في السفينة؟!

وكيف يمكن أن تشكل من أعضاء غير صالحين جماعة صالحة؟! كيف يعقل أن تنتج من ألواح منخورة سفينة جيدة، إننا سمعنا النتيجة تابعة دائماً للمقدمات والمبادئ ، وأن المجموع يحمل أوصاف الأفراد والأجزاء ، إن الأجزاء فاسدة والمواد سقيمة فكيف يمكن أن يكون بها هيكل صحيح ، كيف يعقل أن يشكل من مثل هؤلاء الأفراد الخائنين إدارة سليمة

نزيهة أو حكومة صالحة مثالية؟ كيف يعقل أن يكون كل فرد في مجموع لصاً سارقاً وخبائثاً<sup>(١)</sup> ، فإذا اجتمع بعضهم مع بعض كازار جاعه وصالحة أمينة كريمة ! إن الظاهر المشاهد أن السرقة والحيانة إذا اجتمع بعضها مع بعض كانت سرقة كبرى وخيانة عظيمة ، وإن اللصوص إذا اجتمعوا واتحدوا كانت عصابة من اللصوص أشد خطراً وأعظم جريمة من الأفراد ، لماذا تنسون يا جماعة هذه المشاهدات والبدييات في شأن الهيئات والدول ، وتتوقعون من هيئة أو دولة تشكلت من أفراد لا يخافون الله ، ولا يستحيون من الناس ولا يعفون عن المحارم ولا يتزهون عن الجرائم أن تتحول هيئة نظيفة أمينة أو دولة عادلة رحيمة ؟ !  
إنني لا أومن بمثل هذه المعجزات !

إن العالم كله مبتلي بهذه المغالطة اليوم ، لا ينظر أحد إلى المادة التي اتخذها واعتمد عليها ، ويرى الإنتاج الرديء فيحزن ويتألم ، أليس ذلك محققاً وبلاهة ؟ !

أما الأنبياء والرسل ، صلوات الله عليهم ، فإنهم لا يعيشون في الظلام والأوهام ، ولا يخدعون ولا ينخدعون ، إنهم يحسنون صنع الألواح ويجيدون إعداد الوحدات ، ويتقنون تجهيز اللبانات

---

(١) الخب : الخداع .

التي يقوم عليها صرح الإنسانية فتقوم بنايتهم محكمة البنيان ،  
قوية الأضلاع ، صالحة المواد ، لا يخاف عليها من إنهار .

هذه الحقيقة الضخمة في رسالة الأنبياء مجافيا واقع الحياة  
اليوم حتى في المعاهد والجامعات ، فلا تجدون مؤسسة تقوم لتربية  
الناس على الإيمان الصادق والخلق الفاضل ، وليست هنالك أية  
عناية بتربية الفرد ، فتخرج مجموعات الأفراد الإنسانية فاقدة  
التربية والتوجيه ، إن التلميذ اليوم يقترف كل ما يشاء من جريمة ،  
لأنه لم ينشأ نشأة خلقية ، إنه لا نسبة بين معلوماته ومعارفه  
وبين أخلاقه ، وهؤلاء هم الذين يدخلون الوظائف الخطيرة  
ويشكلون الحكومات والوزارات ، ويسيطرون على الأنظمة  
السياسية ويملكون زمام الحياة .

إن الحقيقة لتنجلي لا محالة ولو موه الموهون ، ربما سمعتم  
أن حماراً تقمص جلد أسد فاستأمد ، ولكن حينها صادف  
الخطر لم يثبت وما لبث أن فضح نفسه بنهيقه ، هذه قصة الحياة ،  
إن ما كمن في الداخل يبدو في الخارج و « إن التخلتق يأتي  
دونه الخلق » كما قال العرب .

إن المصلحين كثير ولكن لا يفكر أحد أن يبدأ بعمله من  
الأسفل ومن الأساس ، أما السياسيون فقصارى جهدهم أن

يظفر حزبهم بالحكم والسلطان، كائناً من كان، وينسون أو يتناسون أن المهمة الأولى لكل من يحاول الإصلاح أو يريد أن يخدم الإنسانية أن يوجد احترام الإنسانية في بني الإنسان وبيعت تقوى الله في عباد الله .

كثير من الناس يعتقدون في الغرب أن العالم دكان سلع ليس إلا، فكل واحد يعامل الآخر كأنه زبون فيريد أن يربح منه أعظم ربح، لقد طغت هذه النزعة التجارية على الحياة كلها . وإن عامة الموجهين العاملين في الشرق والغرب، لا يصل تفكيرهم إلا إلى التثقيف والتعليم، ومنهم من يهدف إلى المشاريع الاقتصادية أو النظم السياسية، وما بقاء المشاريع الاقتصادية أو النظم السياسية وما قيمتها في شعب لا يدين بمبادئ الإنسانية الأولية ولا يحترمها !؟

نحن أصحاب الدعوة الإسلامية نقدم رسالتنا إلى كل حزب وهيئة وإلى الشرق والغرب فرسالتنا رسالة الأنبياء، وهي رسالة الإنسانية في كل عصر ومصر، ونحن واثقون بأن البشرية اليوم أحوج إلى هذه الرسالة من رسالة الأحزاب والهيئات ومن جميع النظم والفلسفات، وإن وجودنا - كحملة هذه الرسالة وأصحاب هذه الدعوة - من أعظم حاجات هذا العصر لأن هذه الدعوة النبوية هي التي تعصم الإنسانية من الأخطار وتتقدم بها إلى السعادة والفلاح؛ وإلى مثل الإنسانية الكامل .

إننا إذا نجحنا في مهمتنا فسيسعد العالم بطاقة من الإنسانية  
فواحة عبقة تعطر الجو وتنعش النفوس ، إن ساحة الإنسانية  
اليوم لا يثبت فيها إلاّ الأشواك ، والإنسان أصبح أندر من  
الكبريت الأحمر ، وإن دوحها لا توتي من أكلها اليوم إلا كل  
فج نبيء وحامض ومرّ ، فليتقدم العاملون للإسلام وليتعهدوها  
بالعناية والسقي حتى تؤتي أكلها يانعاً شياً ، إن مهمة هؤلاء  
العاملين أن يبعثوا في الناس شعور التمرد على هذه الحياة الفارغة  
المأزلة الزائفة ، وشعور الحسرة على ما فقدوه من قيم رفيعة ،  
حتى ينبعثوا مطالبين بالإنسانية الضائعة المفقودة والحياة الكاملة  
المنشودة .

إن المسلمين في هذا العصر - والحق يقال - ما قدرّوا وظيفة  
الرسول ورسالتهم ولم يحسنوا القيام بها ، وإنهم لجناة مقصرون ،  
كان الواجب عليهم أن يتحدوا أوضاع هذا العصر العابثة  
ويقاوموا مثله الناقصة ومكائله الزائفة ، ويقودوا الثورة على  
المادية والأنانية والعبث مجرمات الله وكرامة الإنسان ، إنهم  
فقدوا مكاتبتهم كدعاة ، ولها عن رسالتهم وأمانة الله في  
أعناقهم ، وأصبحوا يعيشون على هامش الحياة ويسرون في ذيل  
القافلة ومؤخر الركب ، ولو عاشوا برسالتهم ولرسالتهم لعاشوا  
مكرمين منعمين ، ولم يكن مصير الإنسانية كما نراه اليوم .



## قصة الأمم الراقية مع رسالات الأنبياء (١)

من القصص الهندية أن أميراً من أهل البيوتات والشرف ورد نهراً ليغتسل فأشرف على الهلاك، فبصر به رجل من أراذل الناس فأسرع إليه وأخذه إلى شاطئ النجاة فلما أفاق الأمير وتماسك سأل عن امم منجده وحاله فإذا هو رجل وضع النسب فاستشاط غضباً وعدّ صنيعه جريمة حيث دنس جسده الطاهر بيده ، وأمر بالمسكين الكريم فعذب وأوسع صفعاً وضرباً وصار نكالاً للناس جميعاً .

لم تنته القصة بعد بل اتفق للأمير مرة ثانية ان يدخل النهر

---

(١) مقال للمؤلف نشر في اللغة الاردوية والانجليزية والهندية نقله الى العربية الاستاذ عبدالله عباس الندوي .

ووقع له نفس الحادث وحاول النجاة فلم يفلح، أما المذنب الأول فكان منه على كذب وكان ميسوراً له إنجاد الأمير ولكنه لم يجترئ أن يكرّر جريمته الأولى بعد الذي ذاقه من العقاب الأليم، وعبثت الأمواج بالأمير المتعالي ولم تحفل بكرامته ونسبه، وذهب ضحية كبريائه وسفاهته .

هذه أسطورة لعلها سبقت إلى مسامعك فاستغربت وقوع مثلها في العالم، وأنكرت صدورها من رجل رزق شيئاً من العقل، ولكن الفكر الإنساني له أطوار وعجائب، قد روى لنا التاريخ شيئاً كثيراً من هذه المضحكات المبكيات، فظالما أغرقت العصية الجنسية والحيلة آلافاً من البيوتات ومئات من الجماعات فقدت رسلها في سبيل هذه العصية والكبر حتى آثرت الهلاك على النجاة، واختارت الغي على الرشد، وأبت أن تتبع رجلاً لا ذنب له إلاّ أنه مُولد في جنس آخر أو وطن آخر، أو في بيت فقير، أو شعب حقير واستنكفت من أن تتخذه قائداً ومرشداً.

وتقرأ لهذه القصة الطريفة نظائر وأمثلة كثيرة في تاريخ الأديان والأخلاق، والعالم الحديث وإن كان ذا عقلية واسعة وفكر عالمي لا يزال يتحفنا بحكايات ونوادير لا تقل عن أسطورة الأمير طرافة وغرابة، فقصة الأمير المتكبر الغريق التي تراها من القصص الحرافية المختلفة إنما هي حكاية صادقة عن بعض

عجائب الإنسان وتمثيل صحيح لناحية من نواحي الطبيعة البشرية .

هل أتاك حديث يونان؟ أرض الشعراء والأدباء، وأرض الفلاسفة والحكماء، ومن يجهل أفلاطون وأرسطاطاليس وبقراط وسقراط؟ أرض قد يظن الرجل أنها لم تنجب غير الشعراء والفلاسفة والأطباء، ولم يكن فيها إلا شاعر أو أديب، أمة موهوبة وأرض مخصصة، كانت فيها الحكمة والفلسفة. فكان فيها الأقليدس والمهندسة، وكان فيها الشعر والأدب والتصوير والنحت، وسائر الفنون الجميلة، أرض كانت مادة لا تنقطع لكل ما أبدعه الذوق الإنساني وأوجدته القرائح البشرية، فكان اليونانيون أساتذة العالم، ولا تزال البلاد والأمم تزهى بتقليدهم حتى اليوم .

كان هذا وذاك، ولكن هناك أموراً لا تحيط بها العقول البشرية ولا يتناولها العلم الإنساني، ولا ينفع فيها الذكاء وحادّة الذهن، وهي: ما سرّ هذه الدنيا؟ وكيف أوجدت ومن أبدعها؟ وماذا أراد بخلقها، ثم ما مصيرها وغايتها؟ وما هي الشريعة المرضية للحياة لدى خالقها؟ وهل من حياة بعد هذه الحياة؟ وإن كان لا بد من الحياة الآخرة. فما هي واجبات الإنسان نحوها وكيف يتزوّد بها ويتعدّلها عدتها؟ وما هو للطيب

والحيث والحلال والحرام ؟ هذه أسئلة يعجز الإنسان عن حلها الصحيح بالحرص والظن فلا القياس يجديه نفعاً ولا الظن يغني عن الحق شيئاً .

حاول اليونان كما دعتهم أن يمتروا بهذه الأسئلة مرور الشعراء والأدباء ، وكان مجال الشعر في هذا الوادي ضيقاً غير فسيح وما كان الشعر يوماً من الأيام فارس هذا الميدان ، وصاحب الكلمة في هذا الشأن ، حتى تعثر اليونان في كل خطوة خطوها ، نسبوا إلى الله عز وجل أموراً يستكف منها الحر الكريم ، واختلقوا طوماراً وهمياً في نسب العقول والأفلاك اختلاقاً مضحكاً وربطوا به العالم وأفرغوا أساطير الأصنام الخرافية ( Mythology ) في قالب الفلسفة ، وكسوا قصص الأصنام والآلهة الموضوعه لباساً دينياً علمياً ، حتى قتلت هذه الخرافات في اليونانيين روحهم الدينية وبقيت اليونان ميتة بين الأموات ، جوفاء لا روح فيها ولا حياة ، أفقرت القلوب من خشية الله والأفئدة من حبه وأثرت القصص الغرامية الموضوعه للآلهة والإلهات وأخبار معاشقتها ومغازلتها وعلاقاتها السرية في الآداب اليونانية والمجتمع اليوناني تأثيراً سيئاً فأثارت الشهوات الجنسية وأفسدت الحياة المنزلية حتى لم يبق هناك ميزان للخير والشر ، وقامت الفلسفة تدافع عن كل إثم وتحتج لكل شر ، ونهض أقطاب الفلسفة والحكمة يبررون البغاء ويدافعون عن

الموسمات وحرقتهم، إلى أن أصيبت هذه الأمة الذكية بانحطاط خلقي هائل ، وفوضى في الإجتماع والمعاشرة وانحلال خلقي واجتماعي لا بقاء لأمة عليه ، وسال هذا السيل الجارف بكل علم وأدب ، وذهب بكل خيرات اليونان وحاصلاتها الممتازة بين البلدان .

وكانت وراء الشرق الجنوبي من اليونان بلاد وأمم دون اليونانيين عقلاً وعلماً، فليس فيها حكماء مثل سقراط وأفلاطون، ولا شعراء مثل هوميروس وعسقليوس ، ولا رجال الهندسة والرياضة مثل أقليدس وفيثاغورث ، ولم تكن لها يد طولى في الفنون الجميلة إلا أن الله سبحانه اختار فيها رجالاً بالنبوة والرسالة وأوحى إليهم دينه وأفاض عليهم علوم ذاته وصفاته ومنحهم في سر هذه الحياة ومصير هذا العالم علماً محكماً لا يتطرف إليه الشك، ووهبهم دعائم دينية يقوم عليها بناء الأخلاق والاجتماع والمدنية الصالحة في كل عصر .

لقد كان اليونان يملكون ثروة عظيمة من الكلمات الحكيمة والمصطلحات العلمية والبحوث الفلسفية ، ولكن الأنبياء كانوا يعرفون حقائق الأشياء وجوهرها ولبسها ، وكان في يد اليونانيين ألغاز معقدة عن الكون والاجتماع والأخلاق كلما حاولوا حلها زادت تعقداً والتواءاً ، أما أولئك فكان في أيديهم المباركة

طرف كل حبل ومفتاح كل فضل .

كان فلاسفة اليونان يتلاعبون بأصداف من بحر الحقيقة المائج  
ويعبثون بالحرف والحصاة ، أما هؤلاء فقد خاضوا ذلك البحر  
العظيم ونزلوا في أعماقه فأخرجوا درره النفيسة الغالية ، وكان  
الاغريق يعلمون كل شيء ويجهلون أنفسهم ، وقد دونوا تاريخ  
العالم بأسره ، فما من بقعة من بقاع الأرض إلا أحاط بها  
اليونان علماً وخبراً ، ولكنهم لم يطلعوا على مدبر العالم الوحيد ،  
وأفلسوا في الروح والأخلاق إفلاساً شائناً ، وعجزت علومهم  
وفلسفة الأخلاق أن تنفخ في رجل واحد روح الطهارة وخشية  
الله ، وأشرب الناس في قلوبهم حب الشهوات وتهاوتوا على اللذات  
ورتعوا في المحرمات ، وأطلقوا عنانهم في الفحشاء والمنكر .

أما الأنبياء فكل من اتصل بهم أوهبت عليه نفحة من نفحاتهم ،  
خرج من أسر الهوى وتحرر من رق الشهوات وخملت فيه  
جنوة الإثم ، وتولدت فيه الدواعي القوية للتقوى والطهارة وبلغ  
من معرفة الله ومحبته ومن اليقين درجة لم يبلغها حكماء اليونان  
وفلاسفتهم .

إن فلاسفة اليونان عجزوا عن أن يربوا تلاميذهم النجباء على  
الزهد والتقوى ومقاومة النفس والهوى ، وذلك أن علمهم قسطاً

وافرأ من العلوم والآداب وخرّجهم في فنون الفلسفة والاخلاق .  
أما الرسل (صلوات الله عليهم وسلامه) فكانوا يرفعون الأنفس  
الوضيعة من حضيض الحيوانية إلى أوج الإنسانية بغير واسطة  
الكتب وأدوات التعليم ، ثم يُعدونهم لمغالبة الشيطان والنفس  
الأمّارة بالسوء، فكانوا أزهّد في الدنيا وأحرص على البر وأخوف  
الله ، وأملك للنفس من كبار الحكماء والفلاسفة ، كانوا أعمق  
الناس علماً وأبرّهم قلوباً وأقلهم تكلفاً .

بلغت دعوة هؤلاء الرسل إلى اليونان وقرعت الآذان فما  
كان منهم إلا أن أنغضوا رؤوسهم في سخرية واستهزاء ، وأجابوا  
في احتقار وازدراء: أبعده هذه العلوم الواسعة والمكتبة الزاخرة  
والاكتشافات المدهشة في كل علم وفن نقتدي بأمينين لا يحسنون  
الكتابة والقراءة ولا يعرفون مبادئ العلوم ؟ هذا والعالم كله  
متطفل على مائدة علومنا ؛ ومُغترف من بحر فضلنا وفلسفتنا ،  
ويطرب لأدبنا وشعرنا ، ويتفاخر بتقليدنا ، وأي علم نجعله حتى  
نحتاج إلى أن نراجع فيه غيرنا؟! فكان عاقبة هذا الكبرياء أنهم  
استغنوا عن هداية الرسل وضيعوا فرصة الانتفاع بالعلوم التي  
لا توجد عند غيرهم، ولا تصلح الحياة إلا بها ، وأصبحت علومهم  
التي كانت مجردة عن هداية الرسل ومعرفة الله تعالى منبع الفساد  
والعلة في جسم حياتهم تنفث السم وتفسد الدم وتعميمهم عن  
الحقائق وتشغلهم بالفضول حتى أصبحوا فريسة الأدرء الحلقية

والشروع الإجتماعية والتنافر الجنسي والاضطراب المنزلي ،  
وأصبحوا حديثاً في التاريخ وقصة من القصص الماضية ، وكانوا  
كما وصف الله تعالى في القرآن « فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا  
بما عندهم من العلم وحق بهم ما كانوا به يستهزؤون » .

وقد تمثلت هذه الرواية في رومة بعينها ، رومة التي ورثت  
عن اليونان نتاج علومها وسياستها إلى أن فاقت صاحبها في  
النظام السياسي والتشريع ، وفن الحرب ، وقد قبضت رومة  
في برانيتها الحديدية على ناصية القارات الثلاث : أوروبا وآسيا  
وأفريقيا ، استولت عليها كأسرة واحدة ، وأجادت في إدارة  
المملكة و كثرة الفتوح والمستعمرات ، ولبابة التشريع وحماية  
الفنون الجميلة في النقش والنحت ، وفن البناء والعمارة ، لقد  
فاقت رومة في كل ذلك على أخواتها وبرزت ، ولكنها بقيت  
جاهلة لسر الحياة ، ولم تتمكن من أن تستقي من معين الحقيقة  
الصافي ، وكانت تدين بعبادة الأصنام والأجرام ، وقد فقدت  
المعايير الصحيحة وخسرت قيم الأخلاق وموازينها السليمة ،  
وظلت بعيدة عن الهداية الكاملة المعصومة ، فكان عاقبة ذلك  
أنها أصيبت بأمراض خلقية روحانية عسيرة ، كتبذير الأموال  
والغلو في الترف والبذخ ، والجشع المادي والتهافت على الأموال  
واللذات ، وازدياد الضرائب والإتاوات ، فعاد كل ذلك وبالأ  
على رومة وعذاباً أليماً ، وفسدت الأذواق ومسخت الأذهان



حتى بلغ أهل رومة في القسوة والاستهانة بالنفوس البشرية مبلغ السباع والجانين ، حتى كثر التفرج على المبارزة بالسيف (Gladiator) بين القرنين ، وكان أهل رومة يتزاحمون لشهوها ، وأحب المناظر إليها احتضار القتلى وأنين الجرحى ، وكانت ولائم الأمراء وحفلات الأغنياء تضاء بإحراق العبيد أحياء<sup>(١)</sup> ، هذا ولم نر في رومة حكيماً ينتقد هذه العادات الممجية أو عالماً يذم هذه القسوة السبعية .

وفي ذلك العصر عصر الانحطاط والتدهور في الأخلاق والمعاشرة ، بُعث في الأمم الشرقية غير واحد من الرسل (صلوات الله عليهم وسلامه) فوصلت أخبارهم ودعوتهم إلى رومة ، ولكن أنفت رومة—وهي سيدة العالم—من أن تصغي إلى رجال وُلدوا في أمم منحطة وفي بلاد تحت حكمها ، واستهات أهلها بدعوتهم ، وكيف تلقي رومة بالأى إلى رجال لا سيادة لهم ولا سلطان وهي صاحبة الأمر والنهي في بلادهم؟ فكأنها قالت بلسان الحال « أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون » ولم ترل حجة المنكرين من الاغنياء والمترفين من قديم الزمان « لو كان خيراً ما سبقونا إليه » ، ما قدرت رومة نعمة النبوة حق

---

History of the European morals by Lecky (١)

قدرها ، فأغرقتها العصبية القومية و كبرياء الملوكية ، وأخذتها موجة طاغية من الفساد والانحلال والفوضى ، ومحييت من الوجود ، « وذلك بأنه كانت تأتيهم رسلمهم بالبينات فقالوا أبشر يهددوننا؟ فكفروا وتولوا واستغنى الله ، والله غني حميد . »

كانت رومة وإيران والصين والهند في القرن السادس المسيحي من البلاد المتمدنة في العالم ، ولكن كل غصن من أغصان الديانات أصبح ذاوياً لايشمر ولا يورق وكل مشعل أشعلته النبوة في زمانها قد نفذ زيته وانقطعت مادته ، أفلست الأمم والأديان في اليقين ومعرفة الله الصحيحة ، وكان التخمين والحرص بضاعة المتدينين ، ومطية العلم والدين ، وكانت أهواء الأنفس روح السياسة والإجتاع ، وكان الدين والمولكية كفرسي رهان ورضيعي لبنان في الحُدعة والمكر ، تخلت الصوامع والبيع والكنائس عن القيادة الرشيدة ، وتنازلت منذ أمد بعيد عن إرشاد الناس ، ولنظرة عجلى في الهندوكية البوذية والمجوسية والمسيحية تدل على أن هذه الديانات قد فقدت نضارتها وانطفأت مصابيحها ، فلا تكاد تضيء ولو مستها نار ، ولم تعد توقظ الروح ولا تنعش الضمير ولا تبعث خشية الله والشعور بالواجب ، ولا تحمل الأحكام الواضحة والأوامر البينة التي فضّلت من لدن حكيم خبير .

أنهكت الدولة الفارسية الرومية الفلاحين والصناع والتجار

بالضرائب المتنوعة والأتاوات المبتدعة المستحدثة التي أصبحت لهم الشغل الشاغل والهمّ الوحيد في الحياة حتى ذهلوا عن التماس حقيقة سامية أو السعي للآخرة ، وكان مثلهم كمثل الثيران ، نهارها تعب وليلها نوم ، وحياتها شقاء للغير ، وحظّها علف وماء ، وذلك أيضاً كي تقوى على الخدمة وتقضي حاجة أصحابها .

أما الهند فقد بلغ فيها التفاوت بين الطبقات والأنساب والحرف مبلغ التفاوت بين البشر والحمير والبقر ، بل نزل المنبوذون فيها منزل الكلاب والخننازير ، ولطخت الشهوة الجنسية والروايات الغرامية المعابد والذخائر الأدبية والدينية وتغلغلت عبادة القوة والمال في أحشاء الأمة وبقي الدين رسماً بالياً وإسماً لبعض الطقوس الدينية والتقاليد الاجتماعية أو مجموعة لمصطلحات الفلسفة والبحوث الفارغة .

وبالجملة إن الأمم المتمدنة قد أصبحت فريسة المدينة الممسوخة والأرداء الخلقية والاجتماعية الفاتكة ، حتى صارت لا تجدر بجمل الرسالة المقدسة والجهاد في سبيلها ، وإغاثة الإنسانية المهووفة ، بل استحالت هي وكرراً من أوكار الفساد وأعظم علة من علل شقاء الإنسانية .

نظرت الحكمة الإلهية إلى أهل الأرض عريهم وعجمهم ،

فاصطفت لنشأة العالم الثانية الأمة العربية ولم تكن دون الأمم  
الروثية الأخرى في عبادة الأصنام وانحطاط الأخلاق ، غير أنها  
لم تلحقها عدوى المدنية المصطنعة والحضارة المزورة والردائل التي  
تأتي بها الحكومات وتحملها العبودية السياسية والروحية ، ثم  
اجتنب الله منها فرداً كان نسيج وحده في طيب عنصره وذكاء  
فطرته وعلو همته وقوة جأشه وصدق عزيمته ، وعفاف نفسه وعزوفه  
عن الشهوات ، وكان آية من الشجاعة والثبات ، بحيث لو عارضه  
الجن والبشر وعاداه البر والبحر لما ضعف ولا استكان ، ولو  
وضعت على يمينه الشمس وعلى يساره القمر لما تحيّر ولا تخيّر ،  
ولو راودته الجبال الشم من ذهب عن نفسه لعصى وأبى ، ولو  
عرضت عليه الرئاسة والملك وكنوز الأرض ومفاتيح الخزائن  
لرفضها من غير تأنٍ ، فلم يكن أحد أجدر منه لحمل الرسالة ولا أقوى  
عليها في مثل تلك الساعة الهيبية ، وفي أشد يوم من أيام الحرج ،  
ولم يكن من النوع الإنساني فرد يوزن بالعالم كله فيرجع عليه ،  
ويتألب عليه جنود الشيطان وقوى الشر فينتصر عليها ، ويشق  
طريقه في عقبات وأشواك حتى يصل إلى نجاح لم يتهأ لأحد قبله  
ولا بعده ، فيبدأ المهمة وهو وحيد لا صاحب له ، وينتقل إلى  
ربه وقد غير مجرى التاريخ وخلّف وراءه أمة فاضلة عادلة  
قوية متناسقة كأنها حلقة مفرغة لا يدري أين طرفها وذلك  
كله في ثلاث وعشرين سنة !

وكانت العقلية الإنسانية قد نضجت وأدركت فاستحقت الرسالة العابدية والنبوية الإنسانية كلها ، وقد بلغ النوع الإنساني سن الرشد فاستحق الرسالة الأخيرة والنبوة التي لا نبوة بعدها ، فمنح الله محمد ﷺ ديناً مبنياً محكماً مفصلاً كاملاً يسع جميع شعوب العالم وجميع طبقاتها وكل أفرادها ، وجميع شئون حياتهم ، يغذي العقل وينير الفكر ويوقظ الروح؛ ويربي المواهب الفطرية، وكان عبادة وشريعة، وخلقاً واجتماعاً وسياسة ، وكان حياة كاملة محيطية بكل ما يحتاج إليه الإنسان من العقائد والإلهيات وإلى ما يتجدد من شئون المجتمع والمدنية في كل زمان ومكان ، محكماً لا عوج فيه ، عروة وثقى لا انفصام لها ، فلا يقبل النسخ والتبديل ولا يحتاج معه إنسان إلى انتزاع أو ابتداع .

وكان هذا الدين ثروة ليشترك فيها بنو آدم ، وكانت قسمة كل شعب وفرد ، قسمة غير ضيزى ، ومجالاً فسيحاً لطيران كل فرد وعروجه على السواء ، فلم يكن فيه سلطان أسرة خاصة ونسل معين ( كلكم من آدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى ) « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

فترى في العصر الأول سلمان من إيران وصهيباً من الروم

وبللاً من الحيش وكثيراً من بني جلدتهم يشاركون قريشاً وأشرف بني هاشم في كل فضل وخير، ويفضلون كثيراً منهم بالعلم، ونسمع عمر رضي الله عنه خليفة المسلمين يلقب بلالاً بالسيد، ثم نرى في حواضر المملكة الإسلامية ومراكزها الكبرى غير واحد من حديثي الإسلام العجم يسودون المسلمين الذين ورثوا الدين عن آباءهم، ويسودون السادة العرب، ونرى الملوك والأمراء يخضعون لفتاويهم وأقضيتهم، وكان رئيس المسلمين الديني وكبيرهم في كل مدينة كبيرة أيام عبد الملك رجلاً من الموالي إلا الكوفة، وكان ينادى في موسم الحج الذي يقصده المسلمون من كل فج عميق - في مثل مكة المركز العربي الكبير - «ألا لا يفت الناس إلا عطاء بن أبي رباح» وكان مولى من الموالي.

مكث الفرس والرومان مدة من الزمان ينظرون إلى الإسلام كعدو بغيض وإلى المسلمين كمتصين، وأصابهم دهشة الفتح، وسرعان ما تبذلت فكرتهم ونظرتهم، وفتحوا للإسلام أبواب صدورهم المغفلة وعقولهم المعطلة فأصابوا من مائدته البسيطة الممتدة على كل ناحية من نواحي الأرض فضرَبوا في حسنة الإسلام بسهم وافر، وفاقوا كثيراً من العرب في العلوم الدينية والفضائل الإسلامية فكان فيهم مثل أبي حنيفة ومحمد بن اسماعيل البخاري ومسلم بن الحجاج النيسابوري وأبي داود السجستاني وأبي

عيسى الترمذي إلى إمام الحرمين الجويني وحجة الإسلام الغزالي الطوسي وكثير من النوابغ والعبقريين المسلمين الذين ينحدرون من أصول عجمية وملوك مجاهدين صالحين كنور الدين الزنجي وصلاح الدين الكردي وملك شاه السلجوقي وشمس الدين أتمش سلطان الهند ، وناصر الدين محمود وغيث الدين بلبن ومحمود شاه الكجراتي ومظفر الحليم ومحمود كاوان الدكني وأورنك زيب التيموري الذين لا يزالون جميعاً موضع الإعجاب من المؤرخين ، وظهر في التاريخ الإسلامي أسر حديثة العهد بالإسلام ، تحكم المسلمين كسلاجقة نيسابور وزنج الشام وأكراد مصر وآل عثمان في تركيا وأسرة المملوكين في الهند وممالك مصر ، وهكذا جمع الإسلام للعجم بين السيادة العلمية والروحية والسيادة السياسية ، وذلك أقصى ما وصلت إليه أمة في دين جديد .

وقد حلت رحمة الإسلام ببلاد أوروبا عن طريق الأندلس وتآلق الإسلام نجماً في سماءها ثمانية قرون ، ولم يكن عرب الأندلس مثلاً كاملاً في روح الدين وشمس الإسلام والأخلاق الإسلامية ، ولا شك أنهم لم يكونوا كأصحاب النبي ﷺ في الأخلاق والحماسة للدعوة الإسلامية والتأثير في أخلاق الأمم وعقولها ، ولكنهم كانوا على علمهم - أفضل حذراً من الأوربيين ، في الدين والأخلاق والعلم والعقل ، عندهم كتاب منزل ودين محكم وشريعة مدونة ، ومنحت أوروبا فرصة طويلة للتدبر في ذلك

الدين ، والنظر في كتابه المبين وفهم شريعته السمحاء .

ولكن أوروبا لم تهتبل هذه الفرصة السعيدة ولم تنتفع بها فأهلكتها الصليبية والكبر الاقليمي ، الذي لا يزال شعارها حتى اليوم ، وهذا ما ورثته عن اليونان المتكبرة ورومة المتغطرة ، فلم تزل تنظر إلى مسلمي الأندلس نظراً شزراً ، نظر العداوة والبغضاء ؛ والحسد والشحناء ، وقد استفادت من مهارتهم في الطب ونبوغهم في الفلسفة كلما اضطرت إلى ذلك ، ولكنها لم تنتفع بملاك أمرهم ورأس مالمهم وجوهرتهم الغالية وهو (الإسلام) حتى أُجِن جنونها في القرن الخامس عشر المسيحي ، فأجلت مسلمي الأندلس من أرضها إلى أفريقيا وتمادت في وجهها وطغيانها إلى أن طمست آثارهم الدينية والثقافية التي كانت ذخيرة ثمينة لأوروبا ايضاً ، وأجلت الاسلام من تلك البلاد فأجلت بجلائه رحمة سماوية أظلمت ثمانية قرون .

فكان عاقبة هذا أن نهضة أوروبا العلمية والعقلية ( Renaissance ) تأخرت لعدة قرون ، وجاءت نهضة خرقاء غطف هوجاء ، إذ كانت على غير هدى وعلى غير أساس ديني خلقي ، فوقعت أوروبا ومن تبعها من أمم العالم في هوة اللادينية وعبودية المادة ، إذ لم يكن في أوروبا بعد جلاء المسلمين منها من يرشدهم إلى الدين الصحيح والأخلاق الفاضلة التي هي أساس



المدنية والمجتمع ، ولم يكن فيها بعد المسلمين من يساعدهم في  
في الجمع بين الدين والعقل وسعادة الدنيا والآخرة ، أما الديانة  
التي تدعو إليها الكنيسة النصرانية فكانت أوهاماً وعصية ومجموع  
تأويلات الأخبار والرهبان وتفسيراتهم الغامضة المعقدة ،  
والأقوال المتضاربة المضطربة والجغرافية المسيحية المقدسة ،  
والتاريخ المقدس الذي لا يؤيده العلم ولا يوافق عليه العقل ،  
وكل ذلك مما ييغض إليها الدين ورجاله ، أما الأمور التي هي  
دعامة العلم الصحيح والعمل النافع كعرفة الخالق ، وصفاته  
والوحي والنبوة والحياة والآخرة فلا قبل لأوروبا بمعرفتها ولا  
سبيل لها إلى الوصول إليها، فكانت لذلك عاجزة عن تعيين غاية  
الحياة وموقف الإنسان من هذه الحياة والكون ومركزه  
في العالم .

فكانت النتيجة الأولى ان أوروبا ركبت عياء في سفرها  
وخبطت خبط عشواء في حياتها شغلها البحث في الآفاق وعلم  
الكائنات عن خالق الارض والسماوات فلم تصل من الخلق إلى  
الخالق ، ومن الكثرة إلى الوحدة ، وتكدست عندها المعلومات  
والاكتشافات ولم تستطع أن تسلكها في سلك ، ولم توفق أن  
تفخ فيها روح الحياة وتهتدي إلى مراكزها وتستعملها في صالح  
الانسانية وسعادتها .

والنتيجة الثانية أنها لما حرمت الدين وروحه ، حرمت الضمير

الحي والقلب الحساس والشعور الرقيق وتهذيب النفس والتغلب على الشهوات ، فلم تنزل في رقي وعلو في العلوم وتظفر بفتح بعد فتح في الدائرة الطبيعية ، ولكنها لم تنزل في انحطاط وسقوط في الروح والأخلاق ، حتى انتهت في سفرها إلى منزل جمعت فيه بين ذكاء الحكماء والفلاسفة ومقدرة الجن والعفاريت ، أما الأخلاق والأعمال فتنازلت إلى طباع الأطفال وميول الشيطان ، إمتلك القوى والوسائل التي سخرت الهواء والماء والبرق والبخار والحرارة والقوة ولكنها ظلت محرومة عن المقاصد الصحيحة وميول الخير التي لا تحصل إلا بفضل الدين الصحيح والتربية الحلقية ، فأصبحت هذه الوسائل إما ضائعة في مقاصد حقيرة لا تنفع الإنسانية شيئاً وإما مخربة تستعمل في دمار الانسان وتخريب الحضارة نفسها ، وقد تسلط شيطان الأثرة على أوروبا بأسرها ، فأمتك بالأمم وطبقات تغزو الطبقات وأفراد ينحرون الأفراد ، ولم تقف عند هذا الحد بل وصلت في الأخير الى القوة الذرية التي تأتي على الحرث والنسل ، وتجعل البلاد الواسعة قاعاً صفصفاً ، أضاعت أوروبا مواهبها وثمرات عقولها وعلومها بإعراضها عن هداية الدين فعادت كلها وبالاً عليها وعلى العالم ، ولا شك أنها تملك مادة واسعة من العلوم وتفاصيلها التي ربما لا تحتاج إليها ، ولكنها تجمل الأصول والمبادئ للحياة الإنسانية وتعرض عن العمل بها ، ولا ريب أنها حلت أغازاً عديدة معتقدة شديدة التعقيد ، ولكنها عجزت عن حل اللغز الأكبر لغز حياتها ،

فكانت كما قال الدكتور محمد اقبال في بعض قصائده يشير الى  
بعض غرائب الغرب :

« من الغريب أن من اقتنص أشعة الشمس لم يعرف كيف  
ينير ليلته وكيف يصبح ، وأن من بحث عن مسالك النجوم  
وطرقها لم يستطع أن يسافر في بيداء أفكاره، ومن عكف عن  
على الأغاز يحلها ويشرحها لم يستطع أن يميز النفع من الضرر .»

ولا سبيل لأوروبا الآن إلا ان تتشجع وتعترف بأنها  
أفلست إفلاساً شائناً في الاخلاق والروح ، وأخفقت في الحياة  
إخفاقاً تاماً، وتستغيث لنجدتها الدين الإسلامي والهداية المحمدية،  
الهداية التي تمنحها غاية الوجود الصحيحة وتفتح فيها روح الحياة  
وترسدها الى خالق الكون ومدبره ، وتمنحها في ذلك علماً واضحاً  
غير ملتبس فتجمع لها بين الحب والخوف وطالما حيل بينها ،  
وبين حياة القلب ونور العقل، وطالما فرق بينها ، فلم يكن الأول  
إلا على حساب الثاني، وتبعث فيها الإيمان بحياة بعد هذه الحياة،  
إيماناً يحول بينها وبين الجنايات والحيات الفردية والاجتماعية والحلقية  
والسياسية ويلقي على عاتقها مسؤولية تجعل منها أمة أمينة تخاف  
الله في السر والعلن ، وتتقي الفواحش ما ظهر منها وما بطن .

ثم لا بد هنا من سيرة انسان كامل يستطيع أن يكون  
إماماً وقدوة في كل شأن من شؤون البشر وفي كل عصر من

العصور، وأن يكون مثلاً كاملاً في العبادة والتقوى والأخلاق ،  
والسلوك والسياسة والاجتماع وفي السلم والحرب والرضا والغضب  
والضعف والقوة ، وفي الحياة المنزلية والزوجية ، والفردية  
والاجتماعية ويصلح ان يكون المثل لأخ ووالد وزوج وصديق  
وقاض وأمير وغني، وفقير وتاجر وحاكم وقائد جيش ؛ وعاهل  
أمة . ذلك هو محمد ﷺ الذي لا يزال المثل الوحيد للبشرية في  
أطوارها ومختلف أدوارها ، ثم لا بد لتلك السيرة ان تكون  
محافظة بتفاصيلها وأن تكون وثيقة تاريخية لا يشك فيها .

ثم تتبع ذلك وتمضه تراجم رجال اهتموا بتلك السيرة  
واحتدوا بها في عصر زاه متمدن ، في اكبر مراكز الحياة  
والمدينة ، مع حمل أعباء الحكومة واحتمال تكاليفها ، ولم تزل  
قدمهم عن صراط الأخلاق والمبادئ ، ولم تفتنهم فتنة المال والقوة ،  
ولم تمل بهم صهباة الحكومة والسيادة عن حياة الزهد والقناعة ،  
أولئك أصحاب محمد ﷺ ومن تبعهم بإحسان .

هذا مع شرائع عادلة للمجتمع الإنساني ، وآداب حكيمة  
للأخلاق، وأحكام واضحة للسياسة، وحدود فاصلة للحياة ، وإذا  
حافظت عليها أوروبا كانت بنجوة عن رهبانية المسيحية ، ومادية  
العصر وغلو البراهمة ، وتطرف الفرس وتكشف الرواقيين ،  
وغلظة الرومان ، وخلاعة اليونان . هنالك تحمل الإنسانية  
والفكرة العالمية محل القومية الوطنية ، والإيثار مكان الأثرة ،

والإقتصاد بدل الإسراف والقناعة بدل الشره والنهامة ، والهدوء  
والسلام بدل القلق ، الإضطراب ، والتعاقد والتعاون بدل  
الشره والنهامة ، والهدوء والسلام بدل القلق والإضطراب ،  
والتعاقد والتعاون بدل التنافر والتناحر ، والإخلاص والصفاء  
بدل النفاق والبغضاء .

ان هذا المعين الصافي للحياة على كسب من اوروبا وفي متناول  
يدها ، ولكن الاستقاء منه يحتاج الى شجاعة كبيرة وذلك ما  
تحجم عنه اوروبا ويروغ عنها سادتها وكبرائها ، إنهم يستطيعون  
ان يدمروا الشعوب والبلاد ، ويحولوا العالم كله الى خراب  
ويشاهدوا الامم تحوض الغمرات ، وتعاني السكرات وتثقلها  
الجراحات ، ويشاهدوا حضارتهم تنتحر بخنجرها وينهار صرحها ،  
ويتداعى قصرها ولكنهم لا يستطيعون - لكبرهم وعنادهم -  
ان يعترفوا بأنهم أخفقوا في مهمتهم ، وأن حضارتهم قد أفلست  
وأن سياستهم قد خابت وأخفقت ، وان علومهم قد أضرت  
هم ، وان عقولهم قد خدعتهم ، انهم لا يزالون يحكمون الحونة  
الجاثرين ، ويخضعون للزعماء الجاهلين ، والحكماء الفاسقين ،  
ويرجعون في التداوي الى الأدعياء المشعوذين ، ولكنهم يابون  
أن يرجعون الى أمي ﷺ وما ذلك إلا لأنهم رفعوا الستار عن  
أسرار الكون وسخروا البرق والبخار ، وملأوا الدنيا كتباً في  
كل علم وفن ، فكيف يسوغ لهم ان يراجعوا من لا يعرف

صناعة الكتابة ولا يعلم فن القراءة ! ان مثل هذا الكبر والأنانية  
دفعت أجيالاً من البشر الى الهاوية وذلك هو داء أوروبا  
العضال .

أما الأخطار الشرقية التي تقتفي أثر أوروبا في كل شيء فهي  
أسوأ حالاً من أوروبا ، لأن هذه الأقطار الشرقية قد أفلتت  
قديمًا في دياناتها وروحها ، وفقدت بقايا الوحي والنبوة ، ولم تصل  
إلى ما وصلت اليه أوروبا من العلم والعقل والوعي السياسي ،  
والشعور بالواجب ، والإخلاص في القومية أو الوطنية ، والمحافظة  
على النظام ، فليس لها في حياتها العملية قوة روحية ولا شريعة  
سماوية كما أنه ليس عندها ما تمتاز به أوروبا من العلم والمدنية  
والتربية السياسية والاخلاق الاجتماعية ، فاذا عاشت أوروبا  
بفضل نظامها واتقان شؤونها ربحاً طويلاً من الزمن ، فإن هذه  
الأقطار لم تكد تنال استقلالها حتى غشيتها الفوضى في السياسة  
والإجتماع ، والإنحلال والفساد في الأخلاق ، وفشت الحيوانات  
وعمت الرشوة وانتشرت السوق السوداء وضج الناس من جور  
الحكام وبطشهم ، وخيانة الوزراء وإسرافهم ، وبطالة العمال  
وجنبايتهم ، واحتكار التجار ومغالاتهم في الأثمان وعيل صبر  
الناس وسموا الحياة وتمنوا الهجرة من الأوطان .

إن دواء هذه العلل التي أصيبت بها هذه البلاد هو مخافة الله  
عز وجل والإيمان بالبعث بعد الموت ، ولكن هذه المخافة لن

تصدر من فلسفة مها كانت قديمة مرت عليها العصور ، ولا من شعر مها علق بالنفوس ، ولا من تاريخ مها كان مؤثراً رائعاً . إن مصدر هذه النفسية ومنبع هذا اليقين هو الدين الذي جاء به الأنبياء في عصورهم ، وجاء به محمد ﷺ للأبد ، ولا تزال أبوابه مفتوحة لكل طارق .

يحتوي تاريخ كل بلاد على تعاليم عالية وحكم سامية وأمثال فائقة للمروعة والكرم ، وروايات شائقة للإيثار والتضحية والوفاء والسماحة والأمانة والشجاعة ، ولا بأس أن تذكر هذه المآثر في الحفلات التاريخية والمجامع العلمية ولا بأس بأن يغتبط بها الإنسان ويروياها ويتغنى بها في الشعر والأدب ، ولا ريب أنها تراث عظيم يجب أن تحتفظ به الحكومات الوطنية وليستفيد منه المؤرخون والمؤلفون .

أما استخراج عجلة الحياة الإنسانية الثقيلة التي غاصت في الوحل فلا يمكن بالعلوم الإنسانية ولا المعاني الشعرية ، ولا النكت الأدبية ، ولا الروايات التاريخية ، ولا البحوث الفلسفية ، ولا النظم السياسية ، ولا يمكن تحويلها من جهة الشر إلى الخير وتسييرها على الخط الأخلاقي الدقيق ، إلا بقوة الدين المتغلغل في الأحشاء ، الراسخ في الأذهان ، الذي يملك على الإنسان مشاعره ويقهر شهواته ، وكل يعلم كيف غاصت هذه العجلة في القرن السادس المسيحي وأعيى الناس أمرها حتى قطعوا منها

الرجاء ، هنالك جاء محمد ﷺ لا يملك قوة مادية ، ولا يملك وسائل التعليم والدعاية والطباعة فدفعها بقوته النبوية وقوة الدين الذي جاء به ، والإيمان الذي يدعو إليه ، فوثبت من مكانها ، ولم تزل سائرة بالركب الإنساني هذه القرون المتطاولة ! إن هذه القوة لا تزال كامنة في هذا الدين الخالد والكتاب المحفوظ ، وهي على استعداد تام لإنقاذ البشر وإغاثة الأمم ، إذا أرادت الأمم ذلك وطابت به نفوسها .

نرى الناس كيف يسعون في علاج سقيمهم وكيف يرجعون في ذلك إلى كل طيب ، بقطع النظر عن جنسيته ووطنيته ودينه ، ولا يألون في ذلك جهداً ، فلا تقف في طريقهم العصبية ولا تمنعهم القومية والوطنية عن إتخاذ طرق التداوي واستخدام الأطباء من اختلاف أجناسهم وأوطانهم .

كذلك على قادة الأمم المريضة والساهرين عليها أن يعملوا ويجهدوا في التماس دوائها والسعي لشفائها ، فكارثة أمة بأسرها أفجع من كارثة أسرة أو فرد ، وإن حق الأمم المريضة على قادتها وزعمائها أكبر من حقوق المرضى على ممرضهم وأقاربهم ، فلا يستغرب إذا نقبوا لذلك في البلاد ، واتخذوا في الأرض نفقاً وإلى السماء سلماً ، وغاصوا في البحار يلتمسون لها الدواء ، لكن لا حاجة إلى هذا التنقيب والعناء فالإسلام أقرب إليهم



من ذلك وأيسر ، وهو مستعد دائماً لإنقاذهم إذا اتسعت له  
صدورهم وطرحوا العصبية جانبا ، والقرآن يخاطب أبناء القرن  
العشرين كماخاطب أبناء القرن السادس المسيحي قائلًا: «لقد جاءكم  
من الله نورٌ وكتابٌ مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل  
السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى  
صراط مستقيم» .



## بين الإنسانية وأصرفائها (١)

تحوي الأساطير الهندية كثيراً من الحكيم ، ويبدو لنا أن حكماء هذا القطر قد أعربوا عن دقائق الفلسفة في لغة سهلة وأسلوب جذاب ، وحاولوا نقل الحقائق الجافة إلى الحياة العامة ، وبإمكاننا أن نتلقى دروساً قيّمة في الفلسفة والحياة بواسطة هذه الأساطير المتواضعة .

ومن الأساطير والحكايات التي حدثتنا بها في الصغر الأمهات وعجائز البيت أسطورة امرأة شقية كان جسمها حافلاً بالإبرات السامة ، وتولت ضررتها اقتلاع هذه الإبرات فاقتلعتها إبرة إبرة

---

(١) مقال للمؤلف ، كتبه أصالة في « اردو » ونقله الى العربية الأستاذ محمد الرابع الندوي ، وظهر في مجلة « الثقافة » التي كانت تصدر من القاهرة تحت اشراف المرحوم الدكتور أحمد أمين .

وتظاهرت بالشفقة والاخلاص وتركت إبروات العينين عمداً  
فبقيت المرأة تتماثل من شدة الألم لا ينطبق لها جفن ، ولا  
تكتحل بنوم ؛ ونحن بصدد هذا الجزء من الحكاية فحسب .

إذا فكرت في الإنسانية وأصدقائها ودرست أحوالها وجدت  
قصتها تشبه قصة المرأة البائسة تمام الشبه ، قد تمزق جسمها  
بالإبروات السامة التي دخلت في جميع هيكلها ، فتمتد أيدي  
الغوث والرحمة إليها لتقتلها ، ولكنها تغفل العينين اللتين لا  
يقر قرار الرجل إلا بسلامتها ، فلا يتم خلاصها ولا يبدأ بالها ،  
فتغدو وتروح جريحة الهيكل كليمة الروح مضطربة البال ، ثم  
تستأنف الجهود من غد وتقطع من غير أن تكمل مهمتها وتبلغ  
غايته .

الإنسانية تمثل الجسم البشري في أعضائه وأجزائه فهي  
جامعة للنواحي الحيوية بأسرها ، وإنها تنتظم الجسم والبطن  
والرأس والقلب ، والروح والنسمة ، وتحل بهذه النواحي أنواع  
من البلاء والشقاء ، وهي إبروات جسمها التي تشقى بها وتتجرع على  
أيديها مرارة الحرمان والألم .

الفاقة والبؤس وفقدان المواد الغذائية الصالحة هي إبروات  
البطن والمعدة التي تشقى بها الإنسانية وتتعذب ، ومن الشقاء  
للعالم البشري ومن المحجلات المنديات أن لا تجد أغلبية البشر

الساحقة ما تسد به فاقتها وتشبع به بطنها لسوء تصرف حفنة من البشر في توزيع المواد الغذائية، او لعسف حكومة جائرة، رغم سخاء القدرة الالهية، وثرورة الحقول الزراعية، وأن لا تجرد البشرية حاجتها من الطعام والغذاء بعد أن تفيض الحقول زرعاً وتدر الأرض لبناً وعسلاً .

الانسان جسد مع الروح، والجسد يشعر بالحرارة والبرودة، فهو دائماً في حاجة إلى الكسوة واللباس، وقد أنزل الله لباساً يوارى سوات الناس وريشاً، وألهم الانسان كيف يزرع القطن، وكيف ينسج الثوب، واشتغلت الأيدي العاملة في الحقول والمصانع، فكانت كميات فائضة من القطن والنسيج، فمن الجور الفاحش والظلم المبين أن يُلجىء إسرار بعض الرجال في الملابس أو احتفاظهم بها في صناديق ومستودعات كثيراً من الناس إلى العري، أو يكسو الأغنياء جدرانهم، فلا تجرد الفقراء من اللباس ما يستر جسمهم ويقيهم البرد والحر .

ان المرء يحمل في جنبه قلباً نابضاً له رغبات وعواطف طبيعية لا ضرر فيها ولا اعتداء، فلا يجوز أن يقف الانسان سداً في سبيلها، وقد وهب عقلاً وذكاءً . فلا يجوز لأحد أن يمنع عن العلم ويحول بينه وبين التفكير؛ فاذا فعل ذلك فرد أو حكومة كان الإنصاف للإنسان المرهق وتحريك فكره، خدمة بارة للإنسانية، وعملاً يستحق الشكر والثناء .

الثقافة لا تزدهر ، والمدنية لا ترتقي وقوى الرجل الروحية  
والمادية لا تنمو أبداً، إذا كانت في البلاد سلطة مستبدة وحكومة  
غاشية، فزى ان الحكومات الأجنبية والدول المستبدة تستولي  
على وسائل الحياة وتتولى توزيعها ، فطوراً تستأثر بها وتارة  
تقسمها قسمة ضيزى ، وأخرى تحول بين الأمة وبين منتجاتها  
وثمرات كدحها وخزائن أرضها، فتعيش في ديارها عيش الغرباء  
أو الصعاليك الطرداء ، فلا تلبث ان تحمد عواطفها ، وتجد  
قرائعها وتضيع مواهبها فتكون أمة خامدة ضائعة ، فلا شك  
أن الاستعمار والاستبداد عدو لدود للانسانية وظلم عظيم للأمة  
وأن جلاءه من بلاد نعمة وسعادة تستحق الأمة عليها كل تهنئة .

إذن فالجوع والعري والامية والاستبداد هي الإبرات التي  
لا تفتأ تجرح الجسد البشري وتؤلمه ، ومن الواجب إزالة هذه  
الآفات وتخليص الأمة منها .

ولكن هل هذه الكروب والآلام هي جل آفات البشرية  
وهي إبرات جسمها فحسب؟ وإذا قلعت هذه الإبرات اطمثت  
القلوب، ونعمت الأبدان، وقرت العيون، وصفا العيش، وطاب  
النوم ، وزالت الهموم والأكدار ، ورجع كل شيء إلى نصابه ؟

لقد كان الخطب يسيراً جداً لو كان ذلك ، ولكن الأمر مع  
الأسف ليس كذلك ، والواقع لا يؤيده .

ان القوت واللباس والعلم والحرية ليست كل شيء في الحياة  
وليست دواء كل داء ، إن في جسم الإنسانية إبرات سامة غير  
الإبرات المذكورة وهي تجرح قلبه وتذيب حشاشته . خذ  
مجتمعاً قد وصل الى كل مطلوب ، وقضى كل حاجة في نفسه  
فنال الحرية والاستقلال وجمع بين العلم والأموال واجتمع له  
كل ما يمكن من أسباب السعادة المادية والهناء ، هل تراه هادئاً  
مطمئناً لا يشكو ولا يئن ؟.

الأمر ليس كذلك كما تعرف جيداً ، بل ربما يكون هذا  
الاجتمع السعيد أشد قلقاً واضطراباً وأكثر شكوى وعتاباً من  
غيره ، فما السر في هذا ؟

سر ذلك أن الإنسان قد يظهر في بطنه الطبيعي بطن كاذب ،  
وهو بطن الجشع والشح الذي لا يزال صائحاً مثل جهنم « هل  
من مزيد ؟ » إنه لا يعشق المال لأنه قنطرة إلى حاجاته أو  
شهواته — على الأكثر — بل قد يكون غرامه له كغاية ونهاية ،  
هنالك لا يطفىء غلته أعظم مقدار من المال وأعظم مجموع من  
الدرهم والدينار ، بل يركب رأسه في شدة غرامه ولوعه  
بالمال ويرتكب كل محذور ومنكر لأنه قد فقد الحاسة الخلقية  
وحرم الضمير والعقل ، وجن بالمال جنوناً ، وأحقر مظاهر هذه  
النفسية والطبيعة الغريبة السوق السوداء ، والارتشاء الرخيص ،  
وابتزاز الأموال من كل وسيلة وطريق

إذا درسنا تاريخ العالم الخلفي درساً عميقاً وفحصنا في أسباب  
الفوضى الاجتماعية والانحلال الخلفي فحصاً دقيقاً ، وفكرنا في  
رؤوس المسائل والمشكلات التي تواجه الحياة القومية والاجتماعية  
اليوم وجدنا أنها لا ترجع الى الضرورات والحاجات الطبيعية في  
غالب الأحوال بل إلى الرغبات الباطلة والحاجات الكاذبة  
والشهوات المصطنعة في الغالب ، وهذه الشهوات التي تعري  
صاحبها بالمحظورات والجنايات وتولد منها أزمات طريفة  
ومشكلات معقدة في الحياة المدنية وفي كل نظام حكومي  
وتحت على الاعتداءات والتدليسات والخيانات والعسف  
والارتشاء والمقامرة والاكتماز والاحتكار والحداع، وتتورط  
لأجلها أعظم الدول والأمم في الفوضوية واللاستورية .

لو بحثت في الأزمات والمشكلات، لاقتنعت بأن تعسر  
مطالب أغلبية ساحقة وكثرة الجياع العراة في بلاد ليست هي  
علة الاضطراب واختلال الحياة الاجتماعية ، إن هؤلاء الجياع  
والعراة لم يضيقوا على الناس ولم ينغصوا عيش أحد في القطر  
اولئك هم الطاعمون الكاسون الذين لا تشبع أنفسهم بالقناطير  
المقنطرة من الذهب والفضة ، ولا تنقطع رغباتهم ، هم الذين  
ملاؤا الدنيا فساداً واضطراباً ، إن قائمة الحوائج الصادقة ليست  
بطويلة جداً كما يتوهم بعض الناس وكما يغالط أكثرهم ، ولكن  
قائمة الحوائج الكاذبة لا حدها ولا نهاية ، وهي تستمر في

الازدياد والتضخم على مر الأيام والليالي ، وقد تتضخم حتى لا تكفي لرجل واحد ثروة هائلة ، ثروة حارة بل ثروة مدينة بأسرها بل وزيادة .

لماذا هذا الغلاء الفاحش واختفاء الاشياء والتضخم النقدي ؟  
أَلَا أَنْ أَغْلِبِيهَ الْبِلَادَ جَائِعَةً عَارِيَةً ؟ لَا ! بَلْ لِأَنَّ شَهْوَةَ الْمَادَّةِ قَدْ طَغَتْ وَتَخَطَّتْ كُلَّ حُدٍّ ، وَبَلَغَتْ غَرَامَ الثَّرَاءِ حُدَّ الْوَلَهِ وَالْجَنُونِ ، وَامْتَحَتِ الْقِنَاعَةَ مِنَ الْحَيَاةِ ، وَتَسَرَّبَ الصَّلْفُ وَالرِّيَاءُ وَحُبُّ الْجَاهِ وَالزَّيْنَةَ فِي جِسْمِ الْمَدِينَةِ فَأَحَالَ الْحَيَاةَ إِلَى الشَّقَاءِ ، وَصِيرَ الدُّنْيَا دَارًا لِلْعَذَابِ وَالْبَلَاءِ ، فَنَوَّاجَهُ فِي كُلِّ مَنْعُطٍ وَمَنْعَرَجٍ ارْتِشَاءً مَسْرَفًا وَسَوْفًا سُودَاءَ وَأَرْبَاحًا جَائِرَةً .

لكن هل ترتكب هذه المخطورات لأن الجوع أو العري قد جاوز حده؟ لا ! إنها أعمال طبقة فضلت أقواتها وملابسها عن حاجاتها ، واجتمع عندها من الكماليات وفضول الحياة وأدوات الزينة والفخار شيء كثير . إنك لا تجد في هذه السوق السوداء فقيراً لا يملك قوت يومه ولباس جسمه ، إلا إنها لأفاعيل أصحاب اليسار والأموال الذين قد حيزت لهم الدنيا بأطرافها وحذافيرها ثم لا رادع لهم عن الحيانة واختلاس أموال الناس .

إن حاجات الإنسان الطبيعية الصادقة خطبها يسير ، وإنه لسهل أن يجد كل إنسان في بلاده ما يشبعه ويكسوه وكل ما يحتاج إليه في حياته ، ولكن هل تستطيع دولة من الدول



الكبيرة أو شريعة من الشرائع العادلة أن ترضي حفنة من السكان في حاجاتهم الكاذبة ورغباتهم الباطلة؟ وهل تقدر أن تشبع بطناً واحداً يشكو الجوع الكاذب، والذي لا يشبع وإن أكل رزق الناس أجمعين ! .

فإذا كانت المسألة مسألة الرغبات المختلفة لا الرغبات الصحيحة، وإذا كانت العلة الاشتهاء الكاذب لا الاشتهاء الصادق فهل تقدر فلسفة اقتصادية أو نظام معاشي قد تكفل الطعام واللباس فقط ولا يتعرض للضمير الإنساني ولا يغير نفسية المجتمع وطبيعته والذي يشعل الحس المادي ولا يعدله أن يحمل مجتمعاً واحداً على الرضاء والقناعة وهدوء البال؟ وهل تستطيع كذلك أن يطلق سراح الحياة من الأزمات الراهنة بعد أن أخذت بالحناق وأناخت على المدنية بكلاكلها .

إن الارتشاء والسوق السوداء والغلو في الأرباح والجنايات ليست إلا نتيجة نفسية تدين بعبادة المال والتفاني في سبيله، ولن يقف هذا الفساد عند حد إذا لم تتغير هذه النفسية، بل إذا سد باب في وجه فساد تتفتح له عشرة أبواب على مصاريعها، لأن الذهن البشري له نوافذ وأبواب كثيرة كلما سد منه منخر جاش منخر .

إن علة المدنية الحاضرة وداعها العضال أنها دست سموم الأثرة

والشع وعبادة النفس في شرايين المجتمع وعروقه ، فأصبح ضميره لا يؤمن إلا بالفائدة الشخصية والنفع العاجل ، فيرتكب أكبر رجل في هذا المجتمع أشنع جريمة ، فاذا اتّمن خان وإذا عاهد غدر ، وإذا حكم جار ، وإذا كان وزيراً آثر ذوي قرابته ، وأفاد نفسه وعشيرته وأصدقائه وأضر بأمته وحكومته ، وإذا كان موظفاً ماطل وتساهل وأبطأ في العمل حتى يرضخ له شيء من الدرجات فينشط ويخف للعمل ، وإذا كان ممثلاً في مجلس أو عضواً في هيئة لم يمثل إلا شخصه ومصالحه ، ولم يفكر إلا في فائدته فيوقع لأجله بلاده وشعبه في خسارة فادحة ، وإذا كان تاجراً أقام السوق السوداء على قدم وساق ، وارتكب لزيادة ثروته وتضخيم ماله كل ما تأباه الفضيلة والمروءة ويمنعه القانون ، فيجوع لأجله ألوف من الرجال ولا يبالي ، وقد يراي الناس فيلقي على مئآت من الفقراء أثقالاً من الديون الفادحة ، فيحتاجون إلى مليم واحد وقرض واحد ، ولا يجدون إليه سبيلاً .

وغلب شيطان الأثرة على الدول والأحزاب بعد أن كان مستولياً على الأفراد والرجال ، فالأحزاب السياسية ممعنة في الأثرة والعصية الحزبية ، أما الجمهوريات الأوروبية والأمريكية فقد جرت منها الأثرة مجرى الروح ، فتدوس الدويلات الصغيرة بقدمها وتمتهن حرمتها وكرامتها ، ونحرمها متعة الحياة وتجعلها لها مستعمرات وأسواقاً لبضائعها وصنائعها ، فحولت هذه الأثرة

العالم كله إلى متجر أو كور حداد، لا ترى فيه إلا تعاطياً في الدرهم والدينار أو سحائب من النار والشرار، والأرض كلها إلى ساحة حرب واسعة، وقد استهان أصحابها في سبيل منافعهم باليهود والذمم، واستحلوا أشنع جريمة وأكبر جناية، إذا اقتضت ذلك ظروف وأحوال، فيقتل ألوف من البشر بأمرها، وتسيطر دولة على دولة أخرى ضعيفة بأسباب مختلفة وعلل واهية، وتباع أمة لأمة أخرى بثمن بحس دراهم معدودة كالضأن والغنم، وتقل من يد إلى يد كالرقيق والجماد، وتقطع بلاد موحدة - يجمع بينها الدين واللغة والحضارة والقومية - قطعاً كالثوب؛ هذه الأثرة القومية الأوربية التي هاجت العرب ضد الأتراك - وكلهم مسامون - فلما أتموا دورهم في الحرب الكبرى وكتبوا سطوراً لنصر الحلفاء بدمائهم أشاحوا عنهم وتناسوهم، واقتسموا بلادهم كالمال السائب أو تراث ميت، حتى إذا أرهقتهم الأحوال واضطروا إلى منح الاستقلال أقاموا في سوريا الصغيرة أربع دويلات مستقلة ثم زينوا لليهود «الوطن القومي» وألهوموم تأسيس دولة مستقلة وقدموا إليهم كل مساعدة حتى إذا أصبح وطن اليهود أمراً واقعاً وقامت دولة إسرائيل تصادمت مصالحهم وأهواؤهم وتضاربت الأثرة بالأثرة؛ وما مسألة فلسطين اليوم، وما تعقدها والتواؤها إلا نتيجة أثره بريطانيا وأمريكا وروسيا القومية ونتيجة تنافسها في استغلال الشعوب ومنابع ثروتها

والسيطرة على الشرق الأدنى ، كذلك حدث في الهند ، فقد استغلتها بريطانيا، حلبت ضرعها قرناً، فلما أخذت بالجد وألجأتها الأحوال الدولية إلى أن تمتع الهند الاستقلال عاملت هذه البلاد التي عاشت عليها دهرأ شر معاملة ، فأسعلتها فأراً على أهلها ولم تغادرها حتى جعلتها مذبحاً يقتل فيه بعضهم بعضاً ، ولم يكن ما صدر من أهل الهند سنة ١٩٤٧ عام الاستقلال إلا يالهام الأجنبي وتديوره الخفي ، ونتيجة الأثرة والتربية الخلقية التي نشأ عليها أبناء هذه البلاد قرناً كاملاً في ظل الانجليز ، التي اخذتهم بها السياسة الانجليزية، والفلسفة الأوربية والنزعة الجنسية التي جاء بها الأوريون .

ثم تلك الأثرة الجاهلية قد بعثت في العالم كله وفي نواحي البلاد كلها طبيعة المطالبة بالحقوق والتهاون بالواجبات، فقام كل واحد في المدينة يطلب ماله على غيره ولا يؤدي ما عليه لغيره ، ونشأ الناس ، ومردوا على التطفيف ؛ « إذ اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون » فأحدثت هذه العقلية الغربية في جميع الأرض نزاعاً بين الأفراد ، وعراكاً بين الأحزاب ، وجدالاً بين الطبقات ، وصراعاً بين الجماهير والحكومات، وظهرت ثورة عنيفة في العمال والتجار ، والفلاحين والموظفين ضد الحكومات ، وعمت الاضرابات والتهديدات والاضطرابات في المدن ، وكل يبالغ في حقه ويحفي في المسألة،

ويتغافل عن واجبه ويخون في وظيفته ، حتى صارت الحياة سلسلة من مطالبات ومصارعات ، وأصبحت الحياة جبلاً ممدوداً يتجاذبه الفريقان من طرفيه .

مهما بالغنا في ذم هذه الأثرة والتذمر منها وتوجيه اللوم إلى هذه المدنية وقادتها ، فإن سبب هذه الأثرة الجارفة ، والمدنية الشقية بأهلها واضح جلي ، فإذا كان الاعتقاد السائد أن لا حياة بعد هذه الحياة الفانية ولا نعيم بعد هذا النعيم الزائل والعهد الراحل ، وإذا كان أدبنا وفلسفتنا وبيئتنا كلها لا تحدثنا إلا عن المادة وحدها ، وتخضع لأصحابها خضوع الذليل المستكين ، وتتغنى بمجدهم وتحت على اقتفاء أثرهم وتقليدهم في الحياة ، وتتكر كل حقيقة دينية وخلقية ، وإذا ماتت فكرة الحياة بعد الممات وإذا تركت القيم الخلقية والحقائق الفاضلة ميدانها للقيم المادية الجسدية ، وإذا تضخم الجسم والبطن على حساب القلب والضمير حتى وسعا الحياة كلها وحجبا الحقائق الخلقية والمعاني الروحية ، فكيف لا يصير الرجل في هذا المحيط مادياً محضاً ، وكيف يؤثر ربح الحاضرة وثمراتها للغد الموهوم ؟ وكيف يستبقي ويدخر لذته وهناك للآخرة التي لا يؤمن بها ؟ إنه إذا لم يؤمن بالعزير الجبار العليم الخبير الديان المهيمن الرقيب الذي هو مالك يوم الدين والذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، فكيف يتروّد في استخدام الوسائل التي تهيب له عيشاً رغيداً وجهاً

عريضاً ، ومالاً ممدداً .

ولما حصرت الفلسفة السياسية المادية حياة الإنسان في القومية والوطنية . واستخفت بكل من يعطف على بني آدم عامة ويواسيهم ، وكل من يؤمن بالحياة الآخرة الخالدة ، وكل من يجب الانسانية ولا يتقيد بوطن أو جنس ، أصبح - إذا ارتفع عن الأثرة الشخصية والمنافع الفردية - لا يفكر إلا في مصالح وطنه ومنافع شعبه ، وقد تصل به هذه الوطنية والقومية إلى الاحتلال والاستعمار والقسوة والهمجية ، فيرى من واجبه الوطني والقومي المقدس ، ومن وفائه لأمته وتفانيه في سبيلها أن يؤسس دولة أمة على أنقاض دولة أمة أخرى ، وعلى أسلاكها ، وهذه هي الوطنية التي حدثت بأوروبا المتمدنة إلى استعمال كل قسوة ووحشية في توسيع ممتلكاتها وإخضاع الأمم والشعوب لدولها وسياستها حتى انتهى بها ذلك إلى استعمال المدمرات والغازات السامة ، وإلقاء القنابل الذرية في الأخير واختراع ( Hydrogen Bomb ) وأشد منها أيضاً .

هذه الأثرة بمعناها الواسع هي آفة المدينة الحاضرة وجائحة زرعها ، فمادامت هذه الأثرة روح الاجتماع والسياسة وأساس المدينة والأخلاق ، فلا تفيد التنظيمات والاصلاحات والمشاريع الاقتصادية والعمرانية الجديدة ، ولا تغني شيئاً ، وإذا كانت

الأثرة متغلغلة في أحشاء المجتمع ، جارية مجرى الروح ، وهي التي تلمي على الناس سياستهم وسلوكهم ، وإذا كان الأفراد في أمة يتنافسون في الشهوات ، ويتهافتون على اللذات ، ويتطاولون في القصور والناطحات للسحاب ، ويتسابقون في اقتناء أفخر السيّارات ، ويتسابقون في أسباب الترف والرخاء ، ومظاهر العظمة والثراء ، وإذا كانت قائمة الحاجات المختلفة والرغبات المصطنعة تتضخم كل يوم لم يفد الأمة غناها ووسائلها وتنظيمها الاقتصادي ، ولم تكفها مواردها ومنابع ثروتها ، مهما كانت واسعة ضخمة ، ولا يفيدها أن تمطر السماء ذهباً وتلفظ الأرض خزائنها - من مناجم الذهب ومنابع البترول - فإن كل ذلك لا يفي بحاجاتها المختلفة المتجددة ، ولا يغني فقراءها ولا يشبع جوعها ولا يكسو عراقتها ، فترى فيها على ثروتها المائلة وأمواها الطائلة فرجاً من الفقراء لا يجدون من الطعام ما يقيم صلبهم ، ومن اللباس ما يكسو عورتهم ، أهذا الجوع القاتل والعري الفاضح الذي ترى مناظره المنجلت على الشوارع العامرة بالقصور ، المزدهجة بالسيارات لفقر البلاد وضيق مواردها وقلة وسائلها ؟ إذاً فمن أين هذه الناطحات للسحاب من القصور ، والمباريات للرياح من السيارات ؟ ولماذا هذه الجولات إلى عواصم أوروبا وأمريكا ؟ لا والله ليس ذلك إلا لهذه الأثرة - قاتلها الله - التي حالت بين الفقراء وبين حظهم من العيش وحقهم من الحياة ،

والتي ابتلعت موارد البلاد وأموالها فلم تترك للفقراء ولا للبلاد شيئاً .

لقد أصبح المجتمع الانساني اليوم جسماً متورماً يستسمنه الجاهل وما هو بسمين ، إنما هو ورم غير طبعي ، فقد بلغ شأواً بعيداً في الزخارف والكماليات وضخامة الميزانيات ، وقلت الأمة وشاع العلم في كثير من الأقطار ، وتساوى الناس في لمعيشه وأسبابها في بعض الأقطار أيضاً - كما يقولون - ولكن الواقع أن هذه الدوحة التي تراها قائمة - دوحة المدينة والمجتمع الإنساني - قد أصابتها دودة أكلت كبدها ونخرتها ، فهي متآكلة جوفاء ، وهذه الدودة الخبيثة هي الأثرة التي تزين للإنسان الظلم وتحمله على الاعتداء ، فإذا بقيت هذه الدودة تأكل كبد المجتمع ونخر جسمه حبطت الجهود الإصلاحية ، وضاعت المشروعات الإقتصادية ، وما دامت هذه الدودة تفعل فعلها فلا تنفع الأمة « الاشتراكية » و « الشيوعية » ولا تؤثر في الحياة تأثيراً كبيراً ، لأن الأمة قد نشأت على الأثرة وحب المال المفرط وحب الحياة الزائد ، ولا تمتنع من الظلم والاعتداء لأجل تظلمات اقتصادية وعقوبات مدنية ، فإن هنا ميادين غير ميدان الإقتصاد يستطيع المرء فيها أن يظلم أخاه ويغصب حقه ، وإذا لم يستطيع ذلك فإنه يقدر أن يؤذيه ويعاكسه على الأقل ، فلا طريق إلى العدل والسلام ، والهناء الكامل إلا أن تقتلع جرثومة



الأثرة والشع والاعتداء من قلوب الناس وعقولهم ، وذلك لا يقدر عليه إلا الدين المسيطر على الروح والقلب ، الدين الذي يبحث على الاقتصاد في المعيشة والزهد في الدنيا ، وينسح الانسان من الاسترسال في الآمال والآماني والانهاك في الذات والشهوات والاسراف في الأكل والشرب ، ويحض على الإيثار على النفس مع الخاصة وإنفاق العفو من المال ، ويحض على طعام المسكين ، والحذب على اليتيم ، وينعي على الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله ويأكلون التراث أكلا لما ويجون المال جباً جماً ، ذلك هو الدين الكامل العادل الذي ينقذ الإنسانية من كل بلاء، ويقم عوجها، ويرتق فتقها ، ويأسوا جراحها .

إن الشعوب أو البلاد التي استقلت في آسيا في الزمن الأخير لا تزال معرضة عن حقيقة ناصعة ، وهي أن رفاهة البلاد وسعادة الشعب ليست من كثرة الوسائل والآلات واكتشاف موارد المال ومنابع الثروة وازدهار الصناعة والزراعة وكثرة المصانع وتقيد أوروبا وأمريكا في تنظيماتها وإن كان لا بد من ذلك ، ولكن الرفاهية الحقيقية في صحة المقاصد والغايات وحسن استعمال الوسائل والآلات وفي اعتدال الحياة وقلة الحاجات ، وحب العدل والمواساة ولن يحصل هذا من طريق الآلات والماكينات ومن طريق التنظيمات الاقتصادية والنظم

السياسية ، ولكن من طريق التربية الدينية وبتأثير الدين الصحيح ، والتعليم الصحيح ، ولئن كانت الوسائل والآلات والتنظيمات ضامنة برفاهة البلاد وسعادة الأمة وهدوء بالها لكانت أوروبا وأمريكا وروسيا أرفه بلاد الله ، وأطيبها عيشاً ، وأقلها كدرأً ، وأنعمها بالآ ، وأرضها بالحياة ، وأبعدها من القلق والاضطراب ، والشكوى والعتاب ، ولكانت جنة في الأرض لا خوف فيها ولا حزن ، ولكن الأمر بالعكس ، فمشكلات هذه البلاد وأزماتها وصراع الأحزاب والنزعات فيها ، وتذمر الناس من حياتهم وعدم رضاهم عن مدنيّتهم ، وبجشهم عن هدوء البال وسكينة القلب حتى في الشرق وأديانها أمر معلوم .

إننا لا ننكر الفضل للأيدي التي تحاول إراحة البشرية المعذبة وإسعافها بازالة تلك الإبرات عن جسدها ، ولكن لا سبيل إلى الطمأنينة الدائمة والسكينة التامة إلا بقلع إبرات العيون ، إن الحصول على الحرية والاستقلال عمل جليل وهدف سام جداً ، والجهاد في سبيل مكافحة الفقر والجوع والعري والامية والجهل ، وإلغاء المظالم والاعتداءات الاقتصادية والاجتماعية ، والحصول على وسائل الحياة حسنة لا تنسى ، وأياد بيضاء لا تتكر ولكن الإنسانية أوسع من هذا ، وإن الإنسان أكثر من المعدة والبطن والجسد والعقل ، إن في جسده مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسم كله ، ألا وهي القلب ،

فالمهم الأهم هو صلاحه ، هدوؤه واعتداله وحياته ، فهل فكر  
المفكرون في هذا؟ وهل وجدوا إليه سبيلاً؟.

فقد تسابقت أيدي الإنسانية الرفيقة لقلع إبرات الجسد  
وقد عُنت بإبرات البطن والمعدة فاقتلعتها وأراحت الإنسانية  
منها ، ولكنها ما فطنت لإبرات العيون التي هي أصل البلاء  
وبذرة الشقاء ، والإنسانية تئن أنين الشكلى ، وتهتف بابتائها  
وأنصارها، وتنادي : إيليّ يا أبنائي البررة ، أسعفوني وخلصوني  
من العذاب الذي أتجرعه ولا أكاد أسبغه ، ويأتي الموت من  
كل مكان ، وما أنا بميت ، وأرمجونني من وجع الفؤاد وألم العين  
الذي شرد نومي وأقلق بالي ، وامسحوا ما بي من علة حتى أعيش  
قريب العين ناعم البال مطمئناً .

فهل من مجيب؟! .

# الفهرس

الموضوع	الصفحة
تقديم	٥
رسالة الإنسانية للشرق والغرب	١٤
إلى الشعب الألماني	٣٢
حديث مع الشباب المسلم المتعلم في الغرب	٤٤
إلى الشباب المسلم المقيم في ديار الغرب	٥٥
إلى قيادة من نوع جديد	٦٧
قصة الأمم الراقية مع رسالات الأنبياء	٨١
بين الإنسانية وأصدقائنا	١٠٦